هداية المريد لتحصيل معاني كتاب

تجريد التوحيد المفيد

للشيخ الإمام

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي

المتوفى عام ٨٤٥ من الهجرة

نقحه وعلق عليه وضبطه

أحمد بن محمد طاحون

وملحق به فصل بعنوان

عبادة واستعانة

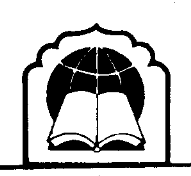
ملخص من كتاب مدارج السالكين للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية

المتوفى عام 751 من الهجرة



٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

عام : ١٤١٤ من الهجرة
١٩٩٣ من الميلاد



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الجديدُ فى هذه الطبعةِ:

❊ كتابة مقدمةٍ للتَّعْريفِ بالكتابِ والمُؤلِّف

❊ وضع عناوينَ جزئيةٍ لتفصِلَ بين كلِّ فِكْرَةٍ وأُخْرى، ولِيكون ذلكَ أيْسرَ على القارئ وهو يتابعُ الكتاب.

❊ كتابةُ تعليقاتٍ وتفسيراتٍ لزيادة الإيضاح، ويجدُها القارئُ فى ذيلِ الصفحاتِ وقد رُمِزَ لها بما يلى (*/ **/ ***) وهكذا.. وفى آخر كلِّ تعليقٍ يجدُ الرمـز (طاء).. تمييزًا لها عن حواشِى دارِ الطباعةِ المنيرية والمرموز لها بالأرقام (١، ٢، ٣).. حفاظاً على نسبة جُهْدِهم الطيِّب إليهم.

❊ ضبطُ كلماتِ الكتابِ بالشَّكْلِ للتَّيسير على القارئ فى صِحَّةِ النُّطْقِ، وإدراكِ المعانى بِسُهولَة.

❊ تَعْيينُ أسْماءِ السُّوَرِ وأرْقامِ الآياتِ الوارِدَةِ فى الكِتابِ فى ذَيْلِ الصَّفَحاتِ ومَرْموزٌ لَها بِالأرْقام.

❊ تصحيح ماسها عنه طابع الكتاب من سنوات عديدة مضت (أى فى القرن الرابع عشر من الهجرة).. أما طبعتنا هذه، ففى العقد الثانى من القرن الخامس عشر

❊ إضافة تسمية جديدة وهى:- «هداية المُريدِ لتحصيل معانى كتاب تجريد التوحيد المفيد»

❊ إضافةُ فَصْلٍ جَديدٍ بِعُنْوان (عِبادَةٌ واسْتِعانَة).. مِنْ كِتاب (تهذيب مَدارجِ السَّالِكين) الذى كتبه الإمام «شمسُ الدينِ بنُ قـيِّم الجوزية»... المتوفى عام ٧٥١ من الهجرة.. وهَذَّبَهُ: عبد المنعم صالح العلىّ العزى (فى القرنِ الرابعَ عشرَ من الهجرة).

❊ وسيجدُ القارئُ مَدى تَرَسُّم المقريزىِّ خطى سَلَفِه ابنِ قيِّم الجوزيَّة، وقد آثَرْتُ اختيارَ النَّصِّ مِنَ التَّهْذيبِ رِعايَةً للاختصار، وَسَيجِدُ القارِئُ فى النَّصِّ المُخْتارِ كُلَّ مايحتاجُ إليهِ للمُقارَنَةِ وَتثبيتِ مايُحَصِّلُهُ مِنْ قِراءَةِ كِتابِ «تجريد التوحيد المفيد».

اللَّهُمَّ اجْعَلْ غايَتَنا مَرْضاتَكَ ياأَرْحَمَ الرَّاحِمين

عنوانُ هذا الكِتاب:

«تجريدُ التوحيدِ المُفيد»، وكلمةُ «المفيد» هنا مجرورة صفة لكلمة «التوحيد».
والمقصودُ بكلمةِ التجريدِ هنا: التنقيةُ والتخْليص.. أى إنَّ المعنى: هذا بيانُ التوحيدِ المفيدِ صَاحِبَهُ يومَ الدِّين، وتَخليصهُ فى هذا الكتابِ من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشركِ وكدَرِ الشكِّ، وتنقيتهُ مِمَّا عَلِقَ به فى أذهان كثيرٍ من الناس وعوامِّهم اتِّباعًا لأهواءِ المُغرضينَ، والمبتَدِعينَ الَّذينَ أَضلَّهُم الشيطانُ وأبْعَدَهُمْ عن طريقِ النبىِّ ﷺ وأصحابِهِ الأَبْرارِ، فأدْخَلُوا على التوحيد ما لايتَّفِقُ مـعَ إخْلاصِ كَلِمَةِ (لا إله إلا الله) وما تتطـلبُهُ من الإذْعانِ لأمْرِهِ ونهْيِهِ سـبـحـانه وتعـالى، ومن قَصْدِ وجْهِ الـكريم بالعـبـادة والدعـاءِ والاستـعانةِ والتَّوَكُّلِ والخَوْفِ والرَّجـاء وعدمِ اتِّخـاذِ الوُسَطاءِ بينَ العَبْدِ ورَبِّه، والإيمـانِ بِأنَّهُ سـبحـانهُ خـالقُ كلِّ شىء، وأنَّ لهُ كـمـالَ القُدْرَةِ والحِكْمَةِ والعِلْمِ، وأنهُ لا نِدَّ لهُ، ولا شَرِيكَ، ولا ولَدَ، ولا صاحِبَةَ.

وجرَّدَ المَقْريـزِىُّ نفسَهُ فى هذا الكتـاب مُفَنِّدًا بالدَّليلِ والبُرْهانِ ماعلـيه أَهْلُ الزَّيْغِ مع اختلافِ مَذاهِبِهِم وانحِرافاتِهِم.. سواءٌ فيما يتعلقُ بالذاتِ العَلِيَّةِ والصفاتِ. أوْ مـايتَّصِلُ بالإراداتِ والـنِّيَّاتِ والمُعْتَقَداتِ، مُتَّبـعًا فى ذلكَ نورَ الكتابِ والـسُّنَّة.. ثُمَّ خُطَى أهْلِ الـعِلْمِ المُحَقِّقينَ مِمَّنْ سبقوهُ. خُصوصًا الإمام ابن قيِّم الجَوْزِيّة.. جَزَاهُما اللهُ خَيْرًا.

تقديم

(١) الكتاب:

«تجريد التوحيد المفيد» رسالة قيمة من مؤلفات العلامة الفقيه المؤرخ/ تقى الدين أحمد المقريزى ، والنسخة التى أشرَفَتْ على إخراجها والتعليق عليها ، «إدارة الطباعة المنيرية» بالقاهرة ، وتقع فى (٤٨) صفحة ، هى التى كانت الأساس للطبعة التى أقدمها فى ثوبها الجديد.

قرأت هذه الرسالة فوجدتها عظيمة الفائدة ، وقد امتازت بحسن العرض، وسهولة العبارة ، ودقة الأفكار ، وصحَّةِ المعانى ، ووضوحِ المقاصد.. إن المقريزى يسير فى هذه الرسالة على منهج أهلِ السنةِ فى توضيح عقيدة التوحيدِ الخالص النَّقِىِّ من كل شائبة من شوائبِ الشرك ، وقد ظهر حِرْصُ المؤلِّفِ على التوجيه الرشيد ، وعلى سلامةِ عقيدةِ المؤمنِ منَ المزالق ، والشُّبَهِ التى تفسدُ عليهِ صحَّةَ يقينه ، وضرب لذلك أمثلةً ،بيَّنَ بها بعض الأحوال التى توقع المرءَ فى شراك الشرك ، وتناقضُ حقيقةَ العبوديةِ للّهِ عزَّ وجل.

وثمة خطوة رائعة فى هذه الرسالة نحن فى أشد الحاجة إلى الالتفات إليها ، خصوصا فى عصرنا الحاضر ، هذه الخطوة هى تحذيراتُهُ من النظر إلى الإسلام وشرائعه وتعاليمه من زاوية واحدة ، والركونِ إليها ، وإغفال سائر ماجاء به هذا الدينُ العامُّ الشاملُ لخير الناسِ جميعًا.. إن الإسلامَ دستور حياة كامل ، تُؤَدَّى فرائِضُهُ ويحافِظُ المُؤْمِنُ على سُنَنِهِ ويلتزم آدابَهُ ، وفضائلَهُ. فمع صحة الاعتقادِ وأداءِ الفرائضِ ،يكون المؤمنُ رحيمًا ، سخيًّا ، بارًّا ، متسامحًا ، عطوفًا ، ذاكرًا لله عز وجل صادقًا ، كافًّا جوارحَه عن معاصى اللّه ، مراعيًا حقوقَ الآخرين. . مجتنبًا

الشرَّ والسوءَ وإلحاقَ الأذى بالناس ، ساعيًا فى الخير مااستطاع. . وعلى سبيل المثال يقول المقريزى:

«من الناس من هو مخلص فى أعـماله لكنها على غـير متابعـة الأمر كجهَّال العبـادِ ، وكلٍّ مَن عَبَدَ اللَّهَ على غير مُرادِه. . ومنهم من يمكثُ فى خلواته تاركًا الجـمعة. . ومنهم من يـجعل الزهدَ فى الدنيـا غايةَ كلِّ عبـادة ورأسَها ، ومن هـؤلاء فريقٌ يجـمع القلبَ على ذِكر الله ويـتركُ الفرائضَ والواجبات ، أو يؤدى الفرائضَ ويتركُ السُّنَنَ والنوافِل ، ويعلم العلم النافع لجمعيته. . ومن الناس من يشـتغل بالنفع المتعدِّى ، كخدمة الفقراء ، وقضاءِ حوائجِ الناس ، ويرون أن التفرغ لنفع الخَلْقِ أفضلُ من الجمعيـة على الله بدون ذلك. . فهؤلاء وأمثالُهم أهلُ التـعبدِ المقيَّدِ الذى يأخذُ الـواحدُ منهم وجـهًا ويُهْمِلُ ماعَداهُ من أوامر الـله تعالى ، فـمتى خرج أحـدهم عن الفرع الذى تعلَّق به من العـبادةِ وفـارقَهُ ، يرى نفسَهُ كأنَّهُ نقَص ، ونَزَلَ عنْ عِبادَته. . فهو يعبد الله على وجْهِ واحد».

ثُمَّ يشيرُ المقريزىُّ إلى أصحابِ التّعَبُّدِ المطلق ، الذين يقتدون برسول اللهِ ﷺ وينظرونَ إلـى الإسلامِ وعبـاداتِهِ نظرةً شامِلَةً ، ولا يقصرون نظَرَهُم على أمْرٍ دون أمر. . فيقول بعد أن ضرب لهم أمثلة:

«وصاحبُ التّعَبُّدِ المطلقِ ليس له غَرَضٌ فى تعبُّدٍ بعينه يُؤْثِرُهُ على غيره، بل غرضهُ تَتَبُّعُ مرضاةِ الله تعالى» أى تراهُ مَعَ العُلَماءِ ، ومَعَ الذَّاكِرينَ ، ومع المتصدِّقينَ ، ومع المجاهدينَ ، ومع أَصْحابِ المُروءاتِ والكَرَمِ ، وهو يؤدِّى الفرائضَ ، ويجـتَهِدُ فى السُّنَنِ والنّوافِلِ ، وفى وقتِ حُلول العبادَة والأَوْقـاتِ والأحوال الفـاضلة يُفَرِّغُ القَلْبَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ يُخـالِطُ النّاسَ فى خَيْرٍ ، وَيَعْتَزِلُ دُعاةَ الشَّرِّ والفَسَادِ.

أىْ هُوَ مَعَ دينِهِ وأوامرِهِ ، مُجْتنبًا نَواهيــه ، ســاعيــا فى طاعــة الله ، ونفْعِ النّاسِ مااستطاع.

وضرب المقريزىُّ أمثِلَةً من حياة الرسول ﷺ وأصحابه للتبصير والتّنويرِ كَيْلا يأخذَ المَرْءُ دينَهُ من زاوية يتشــدَّدُ فيها ، ويترُكُ سائرَ مــاجاء به لبعثِ القُلوبِ والنُّفــوسِ للتَّحلِّى بكُلِّ جــميلٍ وخَيْرٍ ، والتَّخَلِّى عن كلٍّ قــبيحٍ وشَرّ.

إنَّ المقــريزىَّ بهذا التنبــيه يعــيشُ مع أحوالِ هؤُلاءِ الذين يأخــذون من الإسلام زاويةً يَلزَمونها ويُضيِّقون ماوسَّعَ اللهُ على عِبادِهِ ، ويُهْمِلونَ سائِرَ مايجِبُ عليهمُ الالتفاتُ إلَيه والعــملُ به ، ويندفعونَ نحوَ الأمْرِ من زاويةٍ واحدَةٍ يُمليها عَلَيْهِمْ ضيقُ الفكْرِ ، وَعَدَمُ الوَعْيِ الصَّحيحِ بِسُبُلِ مُعالَجَةِ الإسْلامِ للأُمــورِ مُراعيًا الأحوالَ والأزْمانَ والـطّبائعَ والحـقوقَ المُتَعَدِّدَةَ ، وَمُراعيًا الحِفاظَ على سَلامَةِ الأمَّة منَ الفتْنَة ، إذ الشَّرُّ طَبَقاتٌ بعضُها أشدُّ من بعض ، وهذهِ أمورٌ تحتاجُ إلى فِطــنَةِ الفَقيه ، وَذَكاءِ أهْلِ العلم ، مما يساعدعلى كبْحِ جِماحِ المندفعينَ على غير هدايةٍ رشيدة.

أكتَفى بــهذه الإشارات ، وأقَدِّمُ هذه الرِّســالَةَ فى ثوبِهــا الجديدِ الَّذى يَجْعَلُهــا بِإذْنِ اللّه أكثَرَ يُسْرًا وَسُهــولَةً على القــارِئ . . خُصوصــاً عوامَّ المُثقَّفينَ والشّبابَ ، وَسَيَرى كلُّ مَنْ يَقْرَؤُها أوْ يَسْمَعُها منْ غَيْرِه مُتَدبِّرًا أن المقريزىَّ . . جَزاهُ اللهُ خيرًا . . يُقَدِّمُ خدْمَةً عَظيــمَةً ، وَمَنْفَعَةً لاغِنَى لأحد عَنْهَا ، لأنَّ العَقيدَةَ إذا سَلِمَتْ ، والطَّريقَةَ إذا استَقامَتْ على مَنْهَجٍ رَشيدٍ وَصَحيحٍ ، فَأَبْشِرْ بالسَّلامَةِ والطُّمَأنينَة والنَّجاة بِإذْنِ اللّه وَفَضْلِه وَإحْسانه.

وَقَدْ ألْحَقْتُ بِهــا فَصْلاً مُخْتَصَرًا مِنْ كِتاب «مَدارِجِ السَّالكين» للإمــام ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ ، تَحْتَ عُنْوان «**عِبادَةٌ واسْتِعانَةٌ**» ، وَهُوَ يُســاعِدُ فى

تَثْبيتِ مُعْظَمِ ماجاءَ فى هذهِ الرِّسالَةِ ، وتَرى مِنْهُ تَأثُّرَ المَقْريزىِّ بِسَلَفِهِ العَظيمِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُما.

(٢) **المؤلِّف :**

عالِمٌ مصْرِىٌّ مِنْ أصْلٍ لُبْنانىٍّ ، وَهُوَ : تَقِىُّ الدِّينِ أحْمَدُ بْنُ عَلِىِّ بْنِ عَبْدِ القادِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ المَقْريزِىِّ . . وُلِدَ بالقاهِرَةِ بِحَىِّ الجَمالِيَّةِ (حارة برجوان) عام ٧٦٦ من الهجرة (١٣١٤ من الميلاد) ومات بها عام ٨٤٥ من الهجرة كما جاء فى الضوْءِ اللّامِعِ للسَّخاوِىِّ ، وَفِى الأَعْلامِ للزَّرْكَلِىِّ.

قالَ السَّخاوِىُّ : وَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّهِ أنَّ تَصانيفَهُ زادَتْ على مائتَىْ مُجَلَّدَةٍ كِبارٍ ، وأَنَّ شُيُوخَهُ بَلَغَتْ سِتَّمائَةَ نَفْسٍ ، وَكانَ المَقْرِيزِىُّ مُولَعًا بالتاريخِ وَلَهُ فى تاريخِ الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ باعٌ طَوِيلٌ.

ثم بعد هذه المقدمة يبدأ من الصفحة التالية كتابُ «تجريد التوحيد المفيد» جزى اللهُ مؤلِّفَه خير الجزاءِ وأثابه.

أسأل الله عز وجل أن ينفع به إنه سميع مجيب.

جدة فى عام ١٤١٤ من الهجرة

١٩٩٣ من الميلاد

أَحْمَدُ بن محمد طاحون

العاليةُ مِنْ كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ العَرَبيَّة

«جامعَة الأزهر الشريف»

١٣٧٥ من الهجرة

١٩٥٥ من الميلاد

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم

الحَمْدُ للَّه رَبِّ العالمينَ ، والعاقبَة للمُتَّقينَ ، وَصلَّى اللَّهُ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ خاتم النبيينَ ، وعلى آله وَصَحْبه أجْمَعينَ . .

أمَّا بَعْدُ ، فَهذا كتابٌ جَمُّ الفَوائد ، بَديعُ الفَرائدِ ، يَنْتَفعُ به مَنْ أَرادَ اللَّهَ والدَّارَ الآخرَة . . سَمَّيْتُه «تجريد التَّوْحيدِ المُفيدِ» ، وَاللَّهَ أسْألُ العَوْنَ عَلَى العَمَلِ به بمَنِّه

اعلَمْ أنَّ اللَّهَ سبْحانَهُ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ وَمالكُهُ وَإلهُهُ:

حَقيقَةُ التَّوْحيد

في مَعْنى الرَّبِّ:

فالربُّ مَصدَرُ رَبَّ يَرُبُّ رَبًّا فَهُوَ رابٌّ: فَمَعنى قَوْله تَعالى ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ رابُّ العالَمِينَ ، فإنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى هُوَ الخَالقُ المُوجدُ لعباده ، القائمُ بتربيتهِمْ وإصلاحِهِمْ ، المتكفلُ بصَلاحِهِمْ مِنْ خَلْقٍ وَرِزْقٍ وعافيَةٍ وإصْلاحِ دينٍ ودُنْيا .

في مَعْنَى الإلهيَّة:

والإلهِيَّةُ كَوْنُ العِبادِ يتَّخذونَهُ سُبحانَهُ مَحْبوبًا مَألوهًا وَيُفْرِدونَهُ بالحُبِّ والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنَّذْرِ والطاعة والطلب والتَّوَكُّلِ ، وَنَحْوِ هذه الأشْياء . فإنَّ التوحيدَ حَقيقَتُهُ أنْ ترى الأمورَ كُلَّها مِنَ اللَّه تعالى رُؤْيَةً تقطعُ الالتفاتَ إلى الأسْباب والوسائط ، فلا ترى الخيرَ والشرَّ إلَّا منهُ تعالى ، وهذا المقامُ يثمرُ التوكُّلَ وتركَ شكايةِ الخلقِ وتركَ لومهم والرضا عن الله تعالى والتَّسليمَ لحُكْمه .

وإذا عرفتَ ذلكَ فاعلمْ أنَّ الرُّبوبيَّةَ منهُ تعالى لعباده والتَّألُّهَ مِنْ عبادِهِ لهُ سبحانَهُ ، كما أنَّ الرَّحْمةَ هيَ الوَصْلَةُ بينَهُمْ وبينهُ عَزَّ وَجَلَّ .

بيانُ أنَّ للتَّوْحيدِ قشْرَيْن

للتَّوْحيد قشْران:

واعلَمْ أنَّ أنفَسَ الأعْمَالِ وأجَلَّهـا قَدْرًا توحيـدُ اللَّه تعـالى.. غيـرَ أنَّ التَّوْحيدَ لهُ قِشْران: الأوَّل: أن تقولَ بلسانكَ لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويُسمَّى هذا القـولُ توحيـدا، وهوَ مناقضٌ للتَّثليثِ الَّذي تعـتـقدهُ النصـارى، وهذا التوحيدُ يصدرُ أيْضًا منَ المنافقِ الذي يُخالفُ سِرُّهُ جَهْرَه، والقشرُ الثانى: أن لايكونَ فى القلبِ مخـالفةٌ ولا إنكارٌ لمفهومِ هذا القـولِ، بلْ يشتملُ القلبُ على اعتقادِ ذلكَ والتصديقِ به، وهذا هو توحيدُ عامَّةِ الناس.

لُبابُ التوحيدِ وما يخرجُ عنهُ:

ولبابُ التوحيد أنْ يرى الأُمورَ كُلَّها للَّه تعالى، ثمَّ يَقْطعَ الالتفاتَ إلى الوسائطِ وأن يَعبُدَهُ سُبْحـانَهُ عِبادَةً يُفْرِدُهُ بها ولا يَعبُد غيـرَه. ويخرجُ عن هذا التوحـيدِ اتِّباعُ الهوى .. فكلُّ مَنِ اتَّبَعَ هَواهُ فـقدِ اتَّخَذَ هواهُ مَعْبودَه قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿أفَرأيْتَ مَنِ اتَّخذَ إلهَهُ هَواه﴾[1].

وإذا تأمَّلتَ عرفـتَ أنَّ عابدَ الصنمِ لمْ يعـبدْهُ، إنما عبـدَ هواه، وهوَ مَيلُ نفسِهِ إلى دينِ آبائه فيتَّبِع ذلك الميلَ، وميلُ النفس إلى المألوفات أحدُ المعانى التى يُعَبَّرُ عنهـا بالهَوى، ويخرُجُ عن هذا التوحيـد السخطُ على الخلقِ والالتفـاتُ إليهم، فإنَّ مَنْ يَرى الـكُلَّ مِنَ اللَّهِ كيفَ يَسْخَطُ على غَيْرِهِ أوْ يأملُ سواهُ. وهَذا التوْحيدُ مَقامُ الصِّدِّيقينَ.

توْحيدُ الرُّبوبيَّة لابُدَّ مَعَهُ منْ توحيد الإلهيَّة:

ولا رَيْبَ أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ لَمْ يُنكِرْهُ المُشْرِكونَ، بلْ أقَرُّوا بأنَّهُ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ خالِقُهُمْ وخالقُ السَّمواتِ والأرْضِ، والقـائمُ بمصالحِ العالـمِ كلِّه،

---

(١) الجاثية : ٢٣

وإنما أنكروا توحيدَ الإلهية والمَحَبَّة كما قَدْ حكى اللهُ تعالى عنهمْ فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دُونِ اللَّه أنداداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله والَّذِينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبًّا للَّه﴾(١). فلمَّا سَوَّوْا غيرَهُ به فى هذا التَّوْحيد كانوا مُشْرِكِينَ كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذى خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ وجعلَ الظُّلُمات والنُّورَ ثمَّ الَّذينَ كَفَروا بربِّهِمْ يَعْدلونَ﴾(٢).

وقد علَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعالى عِبادَهُ كَيْفِيَّةَ مُبَايَنَة الشِّرْكِ فى توْحيد الإلهيَّة وأنَّهُ تَعالى حَقيقٌ بإفْراده وليًّا وَحكَمًا وَربًّا. فقالَ تعالى: ﴿قُلْ أَغيْرَ اللَّه أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾(٣) وقال ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حكَمًا﴾(٤) وقال: ﴿قُلْ أغير اللَّهَ أَبْغِى رَبًّا﴾(٥)

الفرقُ بَيْنَ تَوْحيدِ الرُّبوبيَّة وتَوْحيدِ الأُلوهِيَّة

من عَدَلَ باللَّه غَيْرَهُ فَقَدْ أشرَكَ:

فلاَ وَلِيَّ وَلا حكَمَ ولا ربَّ إلَّا اللهُ الَّذى مَنْ عَدَلَ بِهِ غَيْرَهُ فَقَدْ أشْرَكَ فى أُلوهيَّتِهِ، ولوْ وَحَّدَ رُبوبِيَّتَهُ، فَتوْحيدُ الرُّبوبية هو الذى اجتمعت فيه الخلائقُ، مؤْمِنُها وكافِرُها، وتَوْحيدُ الإلهيةِ مَفْرَقُ الطُّرُقِ بين المؤْمنينَ وَالمُشركين، ولِهذا كانتْ كَلمَةُ الإسلامِ لا إله إلَّا اللهُ، ولو قالَ لا ربَّ إلَّا اللهُ لَما أجزَأَهُ عندَ المُحَقِّقين، فَتوحيدُ الأُلوهيَّةِ هوَ المَطلوبُ من العباد. ولهذا كان أصلُ «اللَّه» الإله، كما هوَ قولُ سيبويه، وَهُوَ الصحيحُ وَهُوَ قولُ جمهور أصحابِهِ، إلَّا من شَذَّ منهم.

وَبِهذا الاعتبارِ الَّذي قرَّرْنا بِهِ الإله(*)، وأنَّهُ المحبوبُ لاجتماعِ صفات

---

(١) البقرة: ١٦٥ (٢) الأنعام: ١ (٣) الأنعام: ١٤ (٤) الأنعام: ١١٤ (٥) الأنعام: ١٦٤

(*) قررنابه، أي فسَّرنا به معنى الإله، وأنه أصلُ لفظ الجلالة «الله»، كما قال سيبويه واختاره المقريزى، والإلهية تقتضي توحيد المعبود، فمن أثبت توحيدَ الربوبية، وتوقف فى إثبات توحيد الإلهية وأشرك مع الله غيره في عبادة أو دعاء أو توكل أو رجاء وخوف، فقد صار مشركا ولا ينفعه توحيده الربوبية «طاء»

الكمال فيه كانَ اللَّهُ هُوَ الاسمَ الجامعَ لجميع معانى الأسماء الحُسْنى والصِّفات العُليا ، وهو الذي يُنْكِرُهُ المشركونَ وَيَحْتَجُّ الرّبُّ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلَيْهِمْ بتَوْحيدهِمْ رُبُوبِيَّتَهُ علـى تَوْحيد أُلوهيَّته ، كما قـال اللهُ تعالى ﴿قُلِ الحَمْدُ لله وَسَلامٌ على عباده الّذينَ اصْطَفَى ءآللّهُ خَيرٌ أمَّا يُشْرِكون * أمَّن خَلَقَ السَّموات والأرْضَ وأنزلَ لكُم مِّنَ السَّماء مآءً فَأَنبَتْنا به حَدآئقَ ذاتَ بَهْجَةٍ مَّاكانَ لَكُمْ أن تُنبتوا شَجَرَها أَءلهٌ مَّع الله بَل هُمْ قَوْمٌ يَعدلون﴾[1]

وكُلَّما ذَكَرَ تَعالى مِنْ آياته جُمْلَةً مِنَ الجُمَلِ قالَ عَقِبَها ﴿أإلهٌ مَّعَ الله﴾ فأبانَ سبحانهُ وتعالى بذلكَ أنَّ المُشْرِكينَ إنَّما كانوا يتوقَّفونَ فى إثْباتِ تَوْحيدِ الإلهيةِ لا الرُّبوبيَّةِ على أنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ فى الرُّبوبيَّةِ كما يأتى بعْدَ ذلكَ إن شاء اللهُ تعالى.

وبالجُمْلَةِ فهُوَ تعالى يحتجُّ على مُنْكِرى الإلهيَّةِ بإثْباتِهِم الرُّبوبيَّةَ. والملكُ هوَ الآمرُ الناهى الذي لايخلق خَلقًا بمقتضى ربوبيته ويَتْرُكُهُمْ سُدًى مُعَطَّلين لايُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْنَ ، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبون ، فإنَّ الملكَ هو الآمرُ الناهى المُعْطى المانِعُ الضَّارُّ النَّافعُ المُثيبُ المُعاقِبُ.

الرَّبُّ والمَلكُ والإله:

ولذلك ، جاءَتْ الاستعاذةُ في سورةِ الناسِ وسورة الفلَق بالأسْماء الحُسْنى الثَّلاثَة ، الرَّبِّ والمَلك والإله ، فَإنَّهُ لَمَّا قالَ: ﴿قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاس﴾ كانَ فيه إثباتُ أنَّهُ خالقُهُمْ وَفاطرُهُمْ ، فَبَقيَ أنْ يُقال ، لَمَّا خَلَقَهُمْ هل كلَّفَهُم وأمَرَهُم ونَهاهُم؟: قيلَ نعمْ ، فجاءَ ﴿ملك النَّاس﴾ فأثْبَت الخلقَ والأمْرَ. ﴿ألا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ﴾[2]. فلمَّا قيلَ ذلكَ ، قيلَ ، فَإذا كانَ ربًّا موجِدًا وَمَلِكًا مُكَلِّفًا ، فَهَلْ يُحَبُّ وَيُرْغَبُ إلَيه، ويكونُ

---

(١) النمل: ٥٩و٦٠ (٢) الأعراف: ٥٤

التَّوَجّهُ إلَيْهِ غـايَةَ الخَلْقِ والأمْرِ. قـيلَ: ﴿إله النَّاس﴾ ، أىْ مَألوهِهم ومَحْبـوبِهم الذى لايَتَوَجَّـهُ العَبْدُ المَخْلوقُ المُكَلَّفُ العَـابِدُ إلَّالَهُ، فَجاءَتْ الإلهِيَّةُ خاتِمَةً وَغايَةً وما قَبلَها كالتَّوطِئَةِ لها.

أدلَّة الجمهور فى سحر النبى ﷺ وأدلَّة مخالفيه[1]

أعظمُ عَوْذَة فى القُرآن:

وهاتانِ السورَتان أعْظَمُ عَوْذَةٍ فى القُرُآن، وَجاءت الاسْتِعاذَةُ بهما وَقْتَ الحـاجةِ إلى ذلـك، وهوَ حينَ سُحِرَ النبىُّ ﷺ وخُيِّلَ إلَيْهِ أنَّهُ يَفْعَلُ الشىءَ ﷺ وما فَعَلَهُ، وأقامَ على ذلكَ أرْبَعينَ يوماً كما فى الصَّحيح(١).

وكانت عُقَدُ السحرِ إحدى عشرةَ عُقدةً فأنزل اللهُ المُعَوِّذَتينِ إحدى عشرةَ آية ، فانْحَلَّت بكل آيةٍ عُقْدةٌ وتَعلَّقت الاستعـاذةُ فى أوائل القرآنِ باسمه الإله ، وهو المعبودُ وحدهُ لاجتماعِ صفاتِ الكمالِ فيه ومناجاةِ العبدِ لـهذا الإله الكاملِ ذى الأسـماء الحُسْنى والصِّفَـاتِ العُليا المرغـوبِ إليـه فى أنْ يُعيـذَ عَبْدَهُ الذى يناجـيه بكـلامه مـنَ الشيطانِ الحـائلِ بينـهُ وبين مناجاة ربِّه ، ثـم استُحِبَّ التعليقُ باسـم الإله فى جميعِ المواطنِ التى يقالُ فيـها (أعوذُ باللهِ مـنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ) لأنَّ اسمَ اللهِ تعالى هو الغايةُ للأسماءِ.

(١) وهو في الصحـيحين عن عائشةَ رضى الله عنهـا «قالت سحـرَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ من بنى زريق يقال له لبـيد بنُ الأعصم حتى كان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخيل إليـه أنه كان يفعل الـشيءَ وما فعلهُ حـتى إذا كان ذاتَ يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال ياعائشـة: أشعرت أن الله أفتاني فيما استفـتيته فيه أتاني رجلان، فـقعد أحـدهما عند رأسي والآخـر عند رجلي فقـال أحدهما لصـاحبـه ماوجع الرجل؟ فقال: مطبوبٌ، قال: من طَبَّهُ، قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مـشط ومشَّاطة وجف طلع نخلة ذكـر، قال: وأين هو؟ قـال: في بئر ذروان، فـأتاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ناس من أصحابه فجـاء فقال ياعائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كـأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت: يارسـولَ الله أفلا استخـرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهتُ أن أثير على الناس فيه شرًّا فأمر بها فدفنت» هذا لفظ =

ولهذا كان كلُّ اسمٍ بعدَهُ لايتعرَّفُ إلَّابه ، فتقول الله هو السلامُ المؤمنُ المهيمنُ، فالجلالةُ تُعَرِّفُ غيرها، وغيرُها لايُعَرِّفُها:

والذينَ أشْرَكوا به تعـالى فى الرُّبوبيَّةِ منهم مَنْ أثبتَ مَعَهُ خالقًا آخرَ وإنْ لَمْ يَقـولوا إنه إلهٌ مُكافِئٌ لَهُ وَهُم المُشـركونَ وَمَنْ ضـاهاهُم مِنَ القَدَرِيَّةِ: وَرُبوبِيَّتُهُ سُبْحـانَهُ لِلعالَمِ الربوبيـةُ الكاملةُ المطلقةُ الشـاملةُ تُبْطِلُ أقوالَهُم،

= البخارى: وقد اختلف العلماء فى سحـر النبى صلى الله عليه وآله وسلم قديما وحديثا فذهب الجـمهور إلى جواز ذلك ووقـوعه وأنه لايخالف العـصمة فلا ينافى الحـديث قوله تعـالى (والله يعصـمك من الناس) لأن سـحر النبى صلى الـله عليه وآله وسلم كـان من جنس مـاكان يعـتريه صلى الله عليـه وآله وسلم من الأسقـام والأوجاع وهو مـرض من الأمراض وإصابته به كـإصابته بالسم لافرق بينهمـا يدل له قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى آخر الحديث «قـد عافانى الله» قال ابن القـيم فى الهدى قال القاضى عيـاض والسحر مـرضٌ من الأمراض وعـارضٌ من العلل يجـوز عليه صلى اللـه عليه وآله وسلم كـأنواع الأمراض مما لاينكر ولا يقـدح فى نبوته. وأما كـونه يخيل إليه أنه فـعل الشيء ولم يفعله فليس فى هذا مايدخل عليه داخلة فى شيء من صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا وإنما هذا فيما يجوز طُروُّه عليه فى أمر دنـياه التى لم يبعث لسببها ولا فُضِّلَ من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر فغـير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها مالاحقيقة له ثم ينجلى عنه كما كـان: فكان غاية هذا السحر فيـه صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو فى جسده وظاهر جوارحه لافى عقله وقلبه. ولذلك لم يكن يعـتقد صحة مايخيل إليه بل يعلم أنه خيال لاحقيقة له: ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض: وقد ذهب طائفة من المتقـدمين إلى أنه لايجـوز ذلك عليه صلى الله علـيه وآله وسلم وأن هذا نقصٌ فى حـقه صلى الله عليه وآله وسلم وعيب وهو ينافى قـوله تعالى (والله يعصمك من الناس) ومن المتأخرين الشيخ محمد عبـده المصرى وأطنب القول فى رد سحر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ونفيه فى تفسيره جزء عم: وحاصل كلامه فيه: ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السـلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظـن أنه يفعل شيـئا وهو لايفعله ليس من قـبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ولا من قـبيل عروض السهو والنسيـان فى بعض الأمور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح، وهو مـمًّا يصدقُ قـولُ المشركين فيه **﴿إن تتبعونَ إلَّارجلًا مسْحورا﴾** وليسَ المسحورُ عندَهم إلَّا منْ خولطَ فى عـقله وَخيِّل إليه أنَّ شـيئًا يقعُ وهـو لايقع، فيُخَيَّلُ إليه أنهُ يوحى إليه ولا يوحَى إليه. والذى يجبُ اعتقادهُ أنّ القرآنَ مقطوعٌ به وأنَّهُ كتابُ اللهِ بالتواتُرِ عنِ المعصـومِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلمَ، فهوَ الذى يجبُ =

لأنَّها تقتضى ربوبيتهُ لجميعِ مافيهِ(*) منَ الذَّواتِ والصِّفاتِ والحَركاتِ والأفعال.

وَحقيقةُ قولِ القَدَريَّة المجوسيَّة أنَّه تعالى ليس ربًّا لأفعالِ الحيوانِ ولا تتناولها رُبوبيتَّه(**)، إذْ كيف يتناولُ مالايدخلُ تحت قُدرَتهِ ومشيئتهِ وخلْقِه.

بَيان أنَّ شِرْكَ الأممِ كُلّه نوعان

بيانٌ للشِّرْك فى العبادة:

وَشِرْكُ الأُمَمِ كُلُّهُ نَوعْان: شِرْكٌ فى الإلهيةِ، وشِرْكٌ فى الربوبية.. فالشِركُ فى الإلهيةِ والعبادةِ هو الغالبُ على أهلِ الإشراك، وهوَ شِرْكُ

= الاعتقادُ بما يُثْبتهُ وعدمُ الاعتقاد بما ينفيه، وقد جاءَ بنفى السحر عنهُ عليه السلامُ حيثُ نسبَ القولَ بإثباتِ حُصولِ السِّحْرِ لهُ إلى المشركينَ أعدائه، ووبَّخَهُمْ على زَعْمِهِمْ هذا، فإذا هوَ ليسَ بمسحورٍ قطعًا. وأمَّا الحَديثُ، فعلى فرضِ صحَّته، آحاد، والآحادُ لايُؤخَذُ بها فى بابِ العقائد. وعصمةُ النبىِّ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ فى تأثيرِ السحرِ فى عقله عقيدة منَ العقائد لايؤخَذُ فى نفيها عنهُ إلَّا باليَقينِ، ولا يجوزُ أن يؤخَذَ فيها بالظَّنِّ والمَظنون على أن الحديثَ الذى يصلُ إلينا من طريقِ الآحادِ إنما يحصلُ الظنُّ عندَ من صحَّ عِندَهُ. أمَّا منْ قامتْ لهُ الأدلَّةُ على أنهُ غيرُ صحيحٍ فلا تقوم به عليه حُجَّةٌ، وعلى أىِّ حال، فَلَنا بلْ علينا، أن نُفَوِّضَ الأمْرَ فى الحديثِ ولا نُحكِّمَهُ فى عقيدتنا ونأخذ بنصٍّ الكتابِ وبدليلِ العقل، فإنَّهُ إذا خولطَ النبىُّ صلى الله عليه وآله وسلمَ فى عقله كما زَعَموا، جازَ عليهِ أن يَظُنَّ أنهُ بلَّغ شيئًا وهوَ لمْ يبلِّغهُ أو أنَّ شيئا نزلَ عليهِ ولَمْ ينزلْ عليه. والأمْرُ ظاهرٌ لايحتاجُ إلى بيان ا.هـ: والمسْألَةُ فى ذاتها محل بحثٍ، وقدْ تركَ كثيرٌ من المنتسبينَ إلى المذاهبِ الأخْذَ ببعضِ الأحاديثِ التى وردت فى صحيحِ البخارىِّ أو مُسْلمْ أو غيرهما، لقولِ إمامٍ لهمْ فى المذهبِ أو لمخالفتها القياس فما هنا أولى لدفعِ شُبَه المُلحدينَ وغيرهم وموافقة للقرآن القطعىِّ فى ذلك. وإذا علمتَ هذا تعلمُ أنَّ ماذهبَ إليهِ المُصنِّفُ هو قول الجمهور: واللهُ أعلمْ

(*) أى: لجميعِ مافى العالَم - بفتح اللام - يعنى لكلِّ المخلوقات، علوها وسُفْلها (طاء)

(**) الهاء فى (ولا تتناولها) راجعة إلى أفعالِ الحيوانِ قَبْلَها (طاء)

عبَّادِ الأصْنامِ وعبَّادِ الملائكَة وعبَّاد الجنِّ وَعبَّاد المَشايخِ والصالحينَ الأحياء والأموات الذين قالوا ﴿ما نَعبُدُهُمْ إلّا ليقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفى﴾(١) ويشفَعوا لنا عِنْدَهُ، ويَنالُنا بسببِ قُرْبِهِم من اللَّهِ وكَرامتِه لَهُمْ قُرْبٌ وكَرامةٌ، كما هُوَ المَعْهودُ فى الدنيا من حصول الكرامة والزُّلفى لمن يخدمُ أعوانَ الملك وأقارِبَهُ وخاصتَهُ. والكُتُبُ الإلهيّةُ كُلُّها من أوّلها إلى آخرِها تُبْطِلُ هذا المَذْهَبَ وَتَرُدُّهُ وَتُقَبِّحُ أَهْلَهُ وَتَنُصُّ على أنَّهُمْ أَعْداءُ اللَّه تعالى، وَجَميعُ الرُّسلِ صلواتُ اللَّه عَلَيْهِمْ مُتَّفقونَ على ذلكَ منْ أوَّلهِمْ إلى آخرِهِمْ، وما أهْلَكَ اللَّهُ تعالى منَ الأُمَمِ إلَّا بِسَبَبِ هذا الشِّرْكِ وَمِنْ أَجْلِهِ: وَأَصْلُهُ الشِّرْكُ فى مَحَبَّةِ اللَّه تَعالى.

قال تعالى ﴿يُحبُّونَهُمْ كَحبِّ الله وَالّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾(٢)، فأخبرَ سُبْحانَهُ وَتَعالى أنَّهُ مَن أَحَبَّ مَعَ اللّه شَيْئًا غَيْرَهُ كَما يُحبُّهُ، فقد اتَّخَذَ نِدًّا منْ دُونه، وَهذا على أَصَحِّ القَوْلَيْنِ فى الآيَة أَنَّهُمْ يُحبُّونَهُم كَمَا يُحبُّونَ اللّهَ، وَهذا هُوَ العَدْلُ المَذْكورُ فى قَوله تعالى: ﴿ثُمَّ الّذينَ كَفَرُوا بِربِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٣)، والمَعْنى على أَصَحِّ القَوْلَيْنِ أَنَّهُمْ يَعْدلُونَ به غَيْرَهُ فى العبادَة فَيُسَوُّون بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِه فى الحُبِّ وَالْعبادَة: وَكَذَلكَ قَوْلُ المُشْرِكينَ فى النَّار لأَصْنامِهِمْ ﴿تالله إن كُنَّا لَفى ضَلال مُّبينٍ * إذْ نُسَوِّيكُم برَبِّ العالَمينَ﴾(٤) وَمَعْلومٌ قَطْعًا أَنَّ هذه التَّسْوِيَة لمْ تكُن بينهمْ وبينَ اللَّه في كونه ربَّهُمْ وَخالقَهُمْ، فإنَّهُمْ كانوا كَما أخبرَ اللهُ عنهمْ مُقِرِّينَ بأنَّ اللّهَ تعالى وَحْدَهُ هوَ رَبُّهُمْ وخالقُهُمْ وأنَّ الأرْضَ وَمَنْ فيها لله وَحْدَهُ وأَنَّهُ رَبُّ السَّمواتِ السَّبعِ وربُّ العرشِ العظيمِ: وأنهُ سبحانهُ وتعالى هوَ الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عَليه.

---

(١) الزمر : ٣ (٢) البقرة : ١٦٥ (٣) الأنعام : ١ (٤) الشعراء : ٩٧ و ٩٨

التسوية فى المحبَّة والعبادَة.. شِرْكٌ لايُغْفَر:

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالــى فى المحبة والعبادة فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجــاه وذل له كما يحب الله تعالى ويخافه ويَرْجوهُ، فَهذا هُوَ الشِّرْكُ الذى لايَغْفِرُهُ اللَّهُ ، فكيفَ بِمَنْ كان غيرُ الله آثَرَ عندهُ وأحبَّ إليــه وأخوفَ عنده ، وهو فى مــرضاته أشــدُّ سعــيًا منه فى مرضــاة اللهِ ، فإذا كان المُسَوِّى بين اللهِ وبين غــيرِه فى ذلك مُشركًا فــما الظنُّ بهــذا. فعــيــاذًا بالله من أن يَنسلخَ القلبُ من التــوحــيدِ والإســلامِ كانســلاخِ الحيَّة من قشْرِها وهــو يظن أنه مسلمٌ مــوحِّدٌ فهــذا أحدُ أنواع الشــركِ. والأدلَّةُ الدَّالَّةُ على أنه تعــالى يَجبُ أن يكونَ وحــدهُ هو المألوهَ يُبْطِلُ هذا الشركَ وَيَدْحَضُ حُجَجَ أهله، وهى أكثــرُ مِن أن يُحيط بها إلَّا اللهُ . . بل كُلّ ماخلقَهُ اللهُ تعالى فهو آيةٌ شاهدَةٌ بتوحيدِه، وكذلك كلُّ مأمَرَ به، فخَلْقُهُ وأمْرُهُ وما فَطَر عليه عِبــادَهُ وركَّبَهُ فيهمْ من القُوى شاهدٌ بأنّهُ الله(*) الذى لا إله إلَّا هو، وأنَّ كلَّ معبودٍ سِواهُ باطلٌ، وأنَّهُ هو الحقُّ المبين تقدَّسَ وتعالى.

وواعَجبًا كَيْفَ يُعْصى الإلهُ ❊ أمْ كَيفَ يَجْحَدُهُ الجاحدُ
وَلِلَّه فى كُلِّ تحْريكَة ❊ وَتَسْكينَة أبدًا شاهدُ
وفى كُلِّ شىءٍ لَهُ آيَةٌ ❊ تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

الشِّرْكُ فى الرُّبوبيَّة أخْبَثُ شِرْك:

والنوعُ الثانى مِنَ الشِّرْكِ، الشِّرْكُ بِه تَعالى فى الرُّبوبيَّة كَشِرْكِ مَنْ جعلَ معهُ خالقًا آخرَ كالمجُوسِ وغَيرِهِمْ الذينَ يقولونَ بأن للعالَمِ رَبَّيْنِ، أحَدُهما

(*) فى الأصل جاء: بأنّ الله الذى لا إله إلا هو ولعلّ ما أثبتناه أوضح فى الدلالة على المراد (والله أعلم)

خالقُ الخيرِ ، ويقولونَ له بلسان الفارسيَّة «يَزْدان»[١] ، والآخرُ خالقُ الشَّرِّ ويقــولُ لهُ المجوسُ بلسانهم «أهْرَمْن». وكالفلاسفةِ ومَنْ تَبِعَهُمْ الــذيــن يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحدٌ بسيطٌ وأن مصدرَ المخلوقاتِ كلِّها عن العقول والنفوسِ، وأنَّ مصدرَ هذا العالم عن العقلِ الفعَّال، فهو ربُّ كلِّ ماتحتهُ ومدبِّرُهُ ، وهذا أشرُّ من شرْكِ عُبَّاد الأصنامِ والمجوسِ والنصارى ، وهو أخــبثُ شِركٍ فى العالم، إذْ يتَــضمَّنُ من التــعطيل وجحــد الإلهــية والربوبيةِ واستناد الخلقِ إلى غــيرِه سبحانهُ وتعالى مالــم يتضمنهُ شركُ أمَّةٍ من الأمم. وشركُ القَدَرِيَّةِ مُخْتَصَرٌ من هذا، وبابٌ يدخلُ منهُ إليه. ولهذا شَبَّهَهُمُ الصحابــةُ رضىَ اللهُ عنهمْ بالمجوس، كماثبت عن ابن عــمرَ وابنِ عبــاسٍ رضى الله عنهم، وقــد رَوَى أهلُ السُّنَنِ فيــهم ذلك مرفــوعاأنهُم مجوسٌ هذهِ الأمة[٢] ، وكثيرا مايجتمعُ الشرْكان فى العبدِ وينفرد أحَدُهُما عن الآخَرِ، والقرآنُ الــكريمُ، بل الكتبُ المنزَّلَةُ من عند الله تعــالى كُلُّها مُصَرِّحَةٌ بالردِّ على أهل هذا الإشراكِ، كــقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنهُ ينفى شِرْكَ المحبَّةِ والإلهيــةِ ، وقوله ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه ينــفى شركَ الخلْقِ والربوبيةِ.

---

(١) وقوله: يزدان ـ معناه (الله): وقوله: أهرمن أى الشيطان.

(٢) لفظ روايةِ ابن عــمرَ عــند أبى داود وغيــره «عن النبى صلى الله علــيه وآله وسلم قــال: القدريَّةُ مجوسُ هذهِ الأمة، إن مَرِضوا فلا تعــودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» قال الخطابى فى شرح هذا الحديث فى المعــالم، إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبــهم مذاهب المجوس فى قولهم بالأصلين وهمــا النور والظلمة، يزعمــون أن الخيرَ من فعْلِ النور والشَّرَّ فــعل الظلمة، وكذلك القَدَرِيَّة يضــيفون الخير إلى الــله والشرَّ إلى غيره، والله ســبحانه وتعالى خــالقُ الخير والشرِّ لايكونُ شئٌ منهمــا إلا بمشيئته، وخَلَقُهُ الشرَّ شــرًّا فى الحكمة كخلقه الخيــرَ خيرًا، فإن الأمرينِ جمــيعا مضــافان إليه، خلقا وإيجــادا وإلى الفاعلين لهمــا فعلاً واكتســابا اهـ. وقال الحافظُ المُنْذِرِىُّ هذا منقــطع أبى حازم سلمةَ بن دينار لم يســمع من ابن عمــر، وقد روى هذا الحديث من طرقٍ عن ابن عمر ليس منها شىء يثبت ا. هـ. وقد تــعقبه الحافظُ بن حجر وقال هذا الحديث حسَّنَهُ الترمذى وصححه الحاكم ورجاله من رجال الصحيح: والله أعلم.

تفسيرٌ لتَجريدِ التَّوْحيد فى الأفْعالِ والألْفاظِ والإراداتِ:

فتضمنَّتْ هذه الآيَة تجريدَ التوحيدِ لربِّ العالمينَ فى العبادةِ وأنهُ لايجوزُ إشْراكُ غيرِهِ معَهُ لا فى الأفْعالِ ولا فى الألفاظِ ولا فى الإراداتِ، فالشِّرْكُ بِهِ فى الأفعالِ كالسُّجودِ لغيرِه سبحانهُ وتعالى، والطَّوافِ بغيرِ بيتهِ المحرَّم؛ وحَلْقِ الرأسِ عبوديةً وَخُضُوعًا لغيرِه، وتقبيلِ الأحجارِ غيرِ الحجرِ الأسودِ الذى هو يمينهُ تعالى فى الأرضِ أو تقبيلِ القبورِ واستلامِها والسجودِ لها(١).

النهىُ عنِ اتخاذ القبور مساجدَ:

وقدْ لَعَنَ النبىُّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ مَنِ اتَّخَذَ قُبورَ الأنْبياءِ والصالحينَ مساجدَ يُصلَّى فيها. فكيفَ مَن اتَّخَذَ القُبورَ أوثانًا تُعْبَدُ مِن دونِ اللَّه تَعالى، فهذا لم يعلمْ معنى قول اللَّه تَعالى ﴿إيّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفى الصَّحيحِ عنهُ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلمَ أنهُ قالَ: «لَعَنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارَى اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائهمْ مساجدَ يحذِّرُ ماصنعوا»(٢)، وفيهِ عنهُ أيضًا «إنَّ منْ شِرارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ الساعةُ وهمْ أحياءٌ والَّذينَ يَتَّخذونَ القُبورَ مساجدَ»(٣)، وفيهِ أيضًا عنهُ صلَّى اللَّهُ عليه وآلِه وَسلَّمَ «إنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ كانوا يَتَّخذونَ القُبورَ مساجدَ ألا فَلا تتَّخذُوا القبورَ مساجدَ فإنِّى أنْهاكُم عَنْ ذلِكَ»، وفى مُسنَدِ الإمام أحمد وصحيح ابن حبانِ عنه صلى

---

(١) خرَّجَ أبو نعيم فى الحِلْيَةِ من حديثِ فُضَيل بن عياض قال: سمعتُ عبدَ الملكِ بنَ جريج يقول، حدثنى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لاتوضعَ النَّواصى إلاّ لله تعالى فى حجٍّ أوْ عُمْرَةٍ فما سِوى ذلكَ فمُثْلَةٌ» قال أبو نعيم غريب من حديث الفضيل لم نكتُبْهُ إلا من هذا الوجه.

(٢) الحديثُ فى الصحيحينِ عنْ أبى هُرَيرةَ ورواهُ أيضًا الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَل.

(٣) رواهُ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل فى مُسْنَدِهِ بإسنادٍ جيدٍ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ.

اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ «لعنَ اللهُ زوارات القبور والمتخذينَ عليها المساجدَ والسُّرُجَ»(١)، وقال: «اشتدَّ غضبُ اللَّهِ على قومٍ اتَّخذُوا قبور أنبيائهمْ مَساجِدَ»، وَقال «إنَّ مَنْ كانَ قَبْلكُمْ كانوا إذا ماتَ فيهِم الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا على قبرهِ مسجدًا وصوَّروا فيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عِندَ اللَّه»(٢).

أقْسامُ النَّاسِ فى زِيارَةِ القُبورِ:

والنَّاسُ فى هذا البابِ (أعنى زِيارَةَ القُبور)، على ثلاثةِ أقسامٍ: قَوْمٌ(*) يزورونَ الموتى فيدْعُونَ لهمْ وهذه هىَ الزِّيارة الشرعيَّة(**)، وقومٌ يزورونهمْ يَدْعُونَ بِهِمْ(***) فَهؤُلاءِ هُمُ المُشْرِكونَ فى الأُلوهيَّةِ والمَحَبَّةِ، وقَوْمٌ يزورونهمْ فَيَدعُونَهُمْ أنفُسَهُم(****) وقد قال النبىُّ صلَّى اللَّهُ عليه وآله وسلم: «اللَّهُمَّ لاتجْعَلْ قَبْرى وَثَنًا يُعْبَدُ»، وهؤُلاءِ هم المشرِكونَ فى الرُّبوبيَّةِ، وَقدْ حَمَى

---

(١) رواهُ أيضًا أبو داودَ والنسائىُّ والترمذىُّ عنِ ابنِ عبَّاس.

(٢) الحديثُ في الصحيحينِ وغيرِهما عنْ عائشةَ رضىَ اللهُ عنها.

(*) قَوْمٌ: بالرَّفعِ على الاستئناف، أي: منهُمْ قومٌ، مُبتَدأ خبَرُهُ منهمْ محذوف، وجملة يزورون صِفَتُهُ، أوْ أولُهُمْ قوم فتقعُ خبرًا لأولِهِمْ مرفوعٌ، وقومٌ بالرفعِ في القسمينِ التاليينِ بالعطفِ على الأولى (طاء).

(**) يدعونَ لهُمْ: أى يُلقونَ السلامَ على دارِ قَومٍ مُؤمنينَ (السلامُ عليكمْ دارَ قومٍ مؤمنين وإنَّا إنْ شاءَ اللهُ بكمْ لاحقون) ثمَّ يَطلُبونَ منَ اللَّهِ المغفرةَ لموتَى المُوحِّدينَ أهلِ الإسلامِ وهذهِ هيَ الزيارةُ الشرعيةُ التي رُغِّبَ فيها للْعظَةِ والاعتبارِ بالقُبورِ وأهلها (طاء).

(***) يدعون بهم: أى يتوسلون بهم، ويتخذونَ الموتى شفعاء يتقربونَ بهم إلى الله وبذلك جعلوا لله ندا وشريكا فى ألوهيته، وفى محبتهم له (طاء).

(****) فيدَعونَهُمْ أنفُسَهُمْ: أنْفُسَ هنا توْكيدٌ للضميرِ (الهاء) الواقع مفعول يدعونَ، والميمُ في (هم) علامة الجمع، أي إنهمْ يطلبونَ من الموتى مايجبُ عليهمْ طَلَبُهُ من اللَّه وحْدَه كَشفاء المريضِ، وطلبِ البركةِ في المالِ والأولادِ ونحوِ ذلكَ ممَّا هو مُختَصٌّ به وحقٌّ لله عزَّ وجَلَّ على عبادِهِ، والَّذين يفعلونَ ذلكَ جعَلوا الموتى أرْبابًا وضلُّوا بذلكَ ضلالاً بعيدًا (طاء)

النبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ جانبَ التَّوْحيدِ أعْظَمَ حمايةٍ تحقيقًا لقوْلِهِ تَعَالى ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حتى نَهى عَنِ الصَّلاةِ فى هذَيْنِ الوَقْتَيْنِ(*) لِكَوْنِهِ ذَريعةً إلى التَّشَبُّهِ بعُبَّادِ الشَّمْسِ الَّذينَ يسْجُدونَ لَهَا فى هاتينِ الحالتينِ: وسَدَّ ﷺ الذَّريعةَ بأنْ منعَ منَ الصَّلاةِ بَعْدَ العَصْرِ والصُّبْحِ لاتِّصالِ هذينِ الوقتينِ اللَّذَيْنِ يسجُدُ المشركونَ فيهما للشَّمْسِ.

السجودُ لغيْرِ الله :

وأمَّا السُّجودُ لغَيْرِ اللَّهِ فقدْ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ «لاينبغى لأحَدٍ أن يسجُدَ لأحَدٍ إلَّا للهِ»، ولا يَنبَغى[1] فى كلامِ اللَّهِ ورَسولِهِ إنَّما يُستَعمَلُ للَّذى هُوَ فى غايةِ الامتناعِ كقولهِ تعالى ﴿وما يَنبَغِى للرَّحْمنِ أن يَتَّخذَ وَلَدًا﴾[2] ، وقَوْله تَعالى ﴿وَمَا عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغى لَه﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿وَمَا تَنزَّلَتْ بهِ الشَّياطينُ*وَمَا ينبغى لَهُمْ﴾[4]، وقَوْله تَعالى﴿ماكانَ يَنبغى لَنَا أن نَتَّخذَ مِن دونكَ منْ أوْلياءَ﴾[5].

منَ الشِّرْك الحَلفُ بغَيْرِ اللَّه:

وَمِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى المبَاينِ لقَوْله تَعالى﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الشِّرْكُ به فى اللَّفْظِ كالحَلَفِ بغَيرِهِ، كَما رَواهُ الإمامُ أحْمدُ وأبو داودَ عنهُ صلَّى اللَّهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ«مَنْ حَلفَ بِغَيرِ اللَّه فَقَدْ أشْرَكَ»، صَحَّحَهُ الحاكمُ وابنُ حبانَ. قالَ ابنُ حِبان أخبَرَنا الحَسَنُ وَسُفيانُ ثنا عبدُ اللَّهِ بنِ عمرَ الجَعفيّ

(*) فى هذينِ الوقتينِ: أى وقتِ طُلوعِ الشمسِ حتى ترتفعَ قَدْرَ رُمْحٍ أو رُمْحَينِ ، ووقتِ غُروبِها.

وقولُهُ (لِكونه) أى لِكَوْنِ هذا العمل أو هذا الشأن

وقولُهُ (إلى التَشبيه) كمَا جاءَ فى الأصلِ ، المقصودُ بهِ «إلى التشبه» وقد أثبتناه بدلا من كلمة التشبيه (ظاء)

(١) قولهُ لاينبغى مُبتدأ خبرهُ قولهُ إنما يستعمل

(٢) مريم : ٩٢ (٣) يس: ٦٩ (٤) الشُعراء: ٢١٠، ٢١١ (٥) الفُرْقان: ١٨

ثنا عبدُ الرحمنِ بنُ سليمانَ عن الحسنِ بنِ عبدِ اللَّهِ النَّخعيِّ عنْ سعيدِ ابنِ عُبيدَةَ قالَ كُنتُ عندَ ابنِ عمرَ (رضيَ اللَّهُ عنه) فَحلفَ رجلٌ بالكعبةِ فقالَ ابنُ عمرَ رضي اللَّهُ عنهُ: «وَيْحَكْ! لاتفعلْ، فإنِّي سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ«منْ حلفَ بغيرِ اللَّه فقدْ أشْرَكَ».

وصُورٌ منَ الإشْراكِ نَحْذَرُهَا:

ومن الإشراكِ قولُ القائلِ لأحدٍ من الناسِ: ماشاءَ اللهُ وشئْتَ، كما ثبتَ عن النبي ﷺ أنه قال له رجلٌ (ماشاء اللهُ وشئت)، فقال: «أجعلتني للهِ ندًّا ؟ قل: ماشاء اللهُ وحدهُ»، هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبدِ مشيئةً كقولهِ تعالى﴿لمن شاءَ منكمْ أن يستقيمَ﴾[1] ، فكيف بمنْ يقول: أنا مُتوكِّلٌ على اللهِ وعليكَ، وأنا في حَسَبِ الله وحَسَبِكَ ، ومالي إلّا اللهُ وأنتَ ، وهذا من اللهِ ومنكَ ، وهذا منْ بركاتِ الله وبركاتكَ ، واللهُ لي في السماءِ وأنتَ لي في الأرضِ ، وازن بينَ هذه الألفاظ الصادرةِ منْ غالبِ الناسِ اليومَ وبينَ مانَهَى عنهُ ﷺ منْ ماشاءَ اللهُ وشئْتَ ، ثمَّ انظُرْ أيها أفحَشُ، يتبيَّنُ لكَ أنَّ قائلَها[*] أولى بالبُعْدِ من ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وبالجوابِ[2] من النبيِّ ﷺ لقائلِ تلكَ الكلمةِ وأنهُ إذا كانَ

---

(١) التكوير: ٢٨

(*) أنَّ قائلها: أيْ قائل: أنا متوكِّلٌ على اللهِ وعليكَ، ونحو ذلكَ منَ العباراتِ الواردةِ أعلاهُ. . فمثلُ هذا الشخصِ بعيدٌ عنْ إخلاصِ العبادةِ للهِ وحدَهُ، إذْ جعلَ لهُ شريكًا في التَّوكُّلِ عليهِ والاستعاذَةِ به .

وإذا أرادَ أنْ يوكِّلَ شَخْصًا حيا في أمرٍ دُنْيَويّ مَقدورٍ لهُ قال: أنا مُتَوكِّلٌ على اللهِ ثمَّ عليكَ، باستخدامِ حرفِ العطفِ «ثمَّ» الذي يُشْعِرُ بالتراخي مع الترتيب. أما الواو، فهيَ لِمُطْلَقِ الجمْعِ ولا تُفيدُ ترْتيباً. (طاء)

(٢) معطوف على قوله بالبعد يعني وأولى بالجواب الخ . .

قدْ جعلَ رَسولَ اللهِ ﷺ نِدًّا (*) فهذا قد جعلَ منْ لايُدانيه لِلَّهِ نِدًّا.

بيانٌ لمعْنَى العِبَادَة:

وبالجُملَة، فالعِبادَةُ المذكورةُ فى قولِه تعالى ﴿إِيَّاكَ نعبُدُ﴾ هىَ السجودُ، والتوكلُ، والإنابَةُ، والتَّقْوى، والخَشيَةُ، والتَّوْبَةُ، والنُّذُورُ، والحَلفُ، والتَّسْبيحُ، والتَّكْبيرُ، والتَّهْليلُ، والتَّحْميدُ، والاسْتغْفارُ، وَحلْقُ الرَّأس خُضُوعًا وَتعبدًا والدُّعـاءُ.. كلُّ ذلكَ محضُ حقِّ اللَّه تعالى. وفى مُسْنَد الإمام أحمد «أن رجـلا أتى بهِ النبى صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلمَ قدْ أذْنَبَ ذنبًا، فلَمّا وَقَفَ بـين يَديه قــالَ: اللَّهُمَّ إنِّى أتوبُ إلَيـكَ ولا أتوبُ إلى مُحَمّد، فـقــالَ ﷺ: «عَرَفَ الحَقَّ لأَهْله». وَأخْرَجَهُ الحاكِمُ منْ حَديـثِ الحَسَنِ عنِ الأسْوَدِ بنِ سُرَيْع، وقالَ حديثٌ صحيحٌ.

تقسيم الشِّرْكْ إلى تعطيل وغيره وأقسامه

الشِّرْكُ فى الإرادات والنِّيَّات:

وأمَّا الشِّرْكُ فى الإرادات والنِّيَّات، فَذلكَ البحْرُ الَّذى لاساحِلَ لهُ وقَلَّ منْ ينجُو منْهُ، فَمَنْ نَوى بِعَمَله غَيْرَ وَجْه الله تَعـالى فَلَمْ يَقُمْ بِحَقـيــقَة قَوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُد﴾ (**) فإن ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ﴾ هىَ الحَنيفيَّةُ مِلَّةُ إبراهيمَ التى أمرَ الله بِها عبادَهُ كُلَّهُمْ، وَلاَ يقْبَلُ من أحَد غَيْرَها، وهىَ حَقيقةُ الإسْلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرين﴾[1].

(*) وقولُهُ: وأنَّه إذا كانَ قـدْ جعَلَ رَسولَ الله ندًّا يعنى الرَّجُلَ الَّذى قالَ لرَسـول الله «ماشاءَ اللَّهُ وَمَا شئْتَ» ورسول مفعولٌ أول لجَعَلَ وفَاعلهُ ضَميرٌ مُسْتَترٌ فيه جوازًا يعودُ إلىَ «رَجُل» فى الحَديثَ الوارِد قَبْلَهُ (طاء).

(**) قوله : فمَن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقُم بحـقيقة قوله تعالى «إياك نعبد» معناه والله أعلم أن من لم يخلص عمله لله وابتغى به معه غيره، فالحال والشـأن أنه لم يقم بحقيقة العبودية الواجبة لله، المقتضية التجرد وإخلاص النية.

(١) آل عمران : ٨٥

فاستَمْسكْ بِهَذا الأَصْلِ وَرُدَّ مـاأَخْرَجَهُ المُبْتَدعَةُ والمُشْرِكـــونَ إِلَيْهِ(*) تُحقِّق مَعْنى كَلِمَةَ الإلهيَّةِ(**). فـإن قـيلَ المُشْرِكُ إنَّمـا قَصَدَ تَعْظيمَ جَنَابِ الله تَعالى وأَنَّهُ لعَظَمَته لايَنبـغى الدُّخُول عليه إلاَّ بالوَسائط والشُفَعـاء كَحال المُلوكِ. فالمُشْرِكُ لَمْ يَقْصد الاسْتهَانَةَ بِجَنابِ الرُّبوبِيَّة ، وَإِنَّما قَصَدَ تَعْظيمَهُ وَقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، وإنَّمَا أَعْبُدُ هذه الوَسائطَ لتقربنى إليه وتَدْخُلَ بى عليه ، فَهُوَ الغـايَةُ ، وَهذهِ وَسائلُ (***) ، فَلِمَ كان هذا القَدْرُ مـوجبًا لسَخَط الله تَعالى وَغَضَبِه، ومخلّدًا فى النارِ وموجـبًا لسَفْك دماء أصحابه واستبَاحَة حَرَيمِهِم وأموالِهِمْ؟ وهلْ يَجوزُ فى العـقلِ أن يَشْرَعَ اللهُ تعالى لعباده التَّقَرُّب إليه بـالشُّفَعاء والوسائط فـيكونَ تحريـمُ هذا إنَّما استُفـيدَ بالشَّرْعِ فقط أم ذلكَ قـبيحٌ فى الشَّرْعِ، والعَقْلُ (****) يمنَعُ أن تأتىَ به شَريعـةٌ من الشَّرائع؟ ومـا السِّرُّ فى كَوْنِه(*****) لايُغْفَرُ من بينِ ســائرِ

(*) إليه: أيْ تَرُدُّ مايَرِدُ على لسان المُبْتَدعةوفي كُتُبِهِمْ إلى هذا الأَصْلِ الوارد فى الآيَة الكَرِيمَة، يَعْنى أنَّ كُلَّ مالايَتَّفق مع توجيهات الكتابِ ومعَ سُنَّة رسول اللّه ﷺ فَهُوَ بدْعَةٌ لا تُقْبَلُ من صاحِبِها،ولا يَجِدُ فى الآخـرَةِ إلا الخُسْران، إلا مـنْ تَاب وأخْلَصَ وتَغَمَّدَهُ الـلَّهُ بِرَحْمَته (طاء)

(**) تحقق معنى كلمة الإلهيَّة ، هذه العبارة فى الأصل: تـتحقق معنى الكلمة الإلهية ولعلّ ماأثبتناه أوضح . والله أعلم.

(***) وَهذِه وسائل: اسمُ الإشارة يَرْجِعُ إلى لفْظ «الوَسـائط» قبله، أي وسائل تقربُ إلى الله، وهذا من مداخلِ الشيطان إلى النفسِ ليُزَعْزِعَ إيمانها بكَمال قُدْرَة الله، وكَمال علْمه، وكَمال سَمْعه، وأنَّه سُبـحانهُ فى رَحْمَته بِعِبـادهِ لا يَحْتاجُ إلى وُسَطاءَ ولاَ إلى شُفَعـاءَ بَينَهُ وبَيْنَهُم. (طَاء).

(****) قوله: أم ذلك أى: اتخـاذ الوسطاء والشفعـاء بين العبد وربه، وقوله «قـبيح في الشرع والعقل» يجوز أن يكون «العقل» مرفوعا على الاستئناف مبتدأ وخبره جملة «يمنع أن تأتى به شريعة من الشرائع» أي: والعقل يحكم بذلك أيضا ، ولا يرضى بالوسطاء (طاء).

(*****) فى كونهِ لا يُغفَر: الهاء الضمير تعود إلى هذا النوعِ أيضًا من الشِّرْكِ فى العبادَة

الذُّنوبِ كما قالَ تعالى ﴿إنَّ اللَّهَ لايَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مــادُونَ ذلكَ لِمَن يَشاءُ﴾[1].

قُلْنا الشِّرْكُ شِرْكــان . . شِركٌ يتعلقُ بذاتِ المَعْبــود وأسمــائه وصفــاته وأفعاله ، وشِركٌ فــى عبادته ومُعامَلَته وإنْ كانَ صاحِبُهُ يعــتَقِدُ أنَّهُ سبحانهُ وتعــالى لاشَرِيكَ لهُ فى ذاتِه ولا فى صــفــاته. وأمَّا الشِّرْكُ الثــانى ، فَهُوَ الذى فَرَغْنَا منَ الكَلامِ فيهِ وأشَرْنا إلَيْهِ الآن ، وسَنُشْبِعُ الكلامَ فيهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

توضيحٌ للشِّرْك فى الذات والأسْماء والصِّفات والأفْعال:

أمَّا الشِّرْكُ الأوَّلُ فهوَ نوعان: أحَدُهُماشِرْكُ التَّعطيلِ ، وهُوَ أقبَحُ أنواعِ الشــرك ، كَشِرك فِرْعَوْنَ فى قَوْله ﴿ وما رَبُّ العالَمينَ ﴾[2] ، وقالَ ﴿ياهَامَانُ ابْنِ لى صَرْحًا لَعَلِّى أبْلُغُ الأَسْبابَ ❁ أسبابَ السَّموات فأطَّلِعَ إلى إله موسَى وإنِّى لأظنُّهُ كاذبًا﴾[3] ،والشركُ والتعطيلُ مُتلازِمان ، فكلُّ مُشْرِكٍ مُعَطِّلٌ ، وكلُّ مُعَطِّلٍ مُشْرِكٌ ، لكنَّ الشِّرْكَ لايستلزمُ أصلَ التعطيلِ بلْ قدْ يكونُ المشركُ مُقِرًّا بالخالــقِ سُبْحانَهُ وتعالى وصِفاتِه ، ولكنَّهُ مُعَطِّلُهُ حقَّ التَّوحُّدِ.

التعطيلُ أصلُ الشِّرك ومُفَسِّرٌ لَه:

وأصلُ الشرك وقاعدَتُهُ التى يُرْجَعُ إليها هوَ التعطيلُ وهو ثلاثةُ أقسام(❁) أحَدُها: تعطيلُ المصنوعِ عن صــانعهِ ، الثانى: تعطيلُ الصانعِ عن كــمالهِ الثَّابتِ له ، الثالــثُ: تعطيلُ معاملــتِه عمَّا يجبُ على العبــدِ منْ حَقيــقة التوحيدِ. . ومنْ هذا شِركُ أهل الوحدة ومنه شركُ الملاحدةِ القائلينَ بِقِدَمِ

---

(١) النِّساء : ٤٨ (٢) الشعراء: ٢٣ (٣) غافر: ٣٦و٣٧

(❁) وهو ثلاثة: الضمير (هو) راجع للتعطيل قبله، أى التعطيل ثلاثة أقسام. .

العالَمِ وأبَدِيَّته وأنَّ الحَوادثَ بأسْرِها مُسْتَنِدَةٌ إلى أسباب ووسائطَ اقتَضَتْ إيجادَها ، ويُسَمُّونَها العُقولَ والنُّفوسَ ، ومنهُ شِرْكُ مُعَطِّلَةِ الأسْماءِ والصِّفاتِ ، كالجهمِيَّة (١) والقَرامِطَة وغُلاةِ المُعتَزِلَة.

توضيحٌ لِشرْكِ منْ جَعَلَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَر:

النوعُ الثاني شِركُ التمثيلِ ، وهوَ شركُ منْ جعلَ معَهُ إلها آخرَ ، كالنَّصارى في المسيح ، واليهودِ في عُزَيْر ، والمَجوسِ القائلينَ بإسناد حوادث الخيرِ إلى النور وحوادث الشرِّ إلى الظُّلْمَة. وَشِرْكُ القَدَرِيَّة المجوسيةِ مُخْتَصَرٌ منهُ ، وهؤُلاءِ أكثرُ مُشْرِكي العالمِ ، وهمْ طَوائفُ جَمَّةٌ منهم من يَعْبُدُ أجزاءً سَماوِيَّةً ، ومنهم من يعبدُ أجزاءً أرْضيَّةً ، ومن هؤُلاءِ مَن يَزْعُمُ أنَّ مَعبودَهُ أكبَرُ الآلِهَة ، ومنهم من يَزْعُمُ أنَّ إلَههُ منْ جُمْلَةِ الآلِهَةِ ، ومنهم من يزعم أنه إذا خَصَّهُ بعبادَته والتَّبَتُّلِ إليه أقبَلَ إلَيه واعتنى به ، ومنهم من يَزْعُمُ أنَّ معْبودَهُ الأدْنى يُقَرِّبُهُ إلى الأعْلى الفَوْقانيِّ والفوقانيِّ يُقَرِّبُهُ إلى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ حتى تُقَرِّبَهُ تلك الآلِهَةُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى ، فتارَةً تكْثُرُ الوَسائطُ وتارةً تَقِلُّ.

فَإذا عرفتَ هذه الطوائفَ وعرفتَ اشتدادَ نكيرِ الرسولِ ﷺ على مَن أشركَ به تعالى في الأفعالِ والأقوالِ والإراداتِ كما تقدَّمَ ذكْرُه ، انفتحَ لكَ بابُ الجوابِ عنِ السؤالِ. فنقول: اعْلَمْ أنَّ حقيقةَ الشركِ تشبيهُ الخالقِ بالمخلوقِ ، وتشبيهُ المخلوقِ بالخالقِ.

---

(١) نسبة إلى جَهْم بنِ صَفوان، ظهرت بدعتهُ بترمذَ وقتَلَهُ سالمُ بنُ أحوز المازنيّ بمرو في آخرِ مُلْك بني أُمَيَّةَ: وأصلُ مَقالَة التَّعْطيلِ للصِّفات والأسماء مأخوذٌ من تلامذَة اليهود والمُشْركين وَضُلَّال الصَّابئينَ. وأوَّل مَنْ حُفظَ عنهُ أنَّه قالَ هذه المَقالَةَ في الإسلامِ، الجَعْدُ بنُ دِرْهَم، وأخذَها عنهُ الجَهْمُ بنُ صفوان وأظهَرَها، فَنُسِبَتْ إلَيْه. قيلَ إنَّ الجعدَ أخَذَ مقالتهُ بالتعطيلِ عنِ أبان بنِ سمعان، وأخذها أبانُ عن طالوت بنِ أختِ لَبيد بنِ الأعصَم، اليهودي الساحر.

أمَّا الخالقُ فإنَّ المُشركَ شبَّهَ المخلوقَ بالخالقِ فى خصائصِ الإلهيةِ ، وهِىَ التَّفرُّدُ (*) بملْكِ الضرِّ والنّفعِ والعطاءِ والمَنْعِ ، فمنْ علَّقَ ذلكَ بمخلوق فقد شَبَّهَهُ بالخالقِ تعالى وسَوَّى بين الترابِ وربِّ الأربابِ ، فأَىُّ فُجورٍ وذنبٍ أعظَمُ منْ هذا؟

من خصائصِ الإلهيَّةِ الكمالُ المُطْلق

ومنْ خَصائصِ الإلهيَّة:

واعلمْ أنَّ مِنْ خَصائصِ الإلَهِيَّةِ الكَمالَ المُطلَقَ من جميعِ الوجوهِ الذى لانَقْصَ فيهِ بوجه من الوجوهِ ، وذلكَ يوجِبُ أن تكونَ العبادةُ لهُ وحدهُ عقلًا وشرعًا وفطْرَةً ، فمنْ جعلَ ذلكَ لِغَيْرِه ، فقدْ شبَّهَ الغَيْرَ بِمَنْ لاشبيهَ لهُ ، ولشدَّةِ قُبْحِهِ وتَضَمُّنه غايةَ الظُّلْمِ ، أخبرَ مَن كَتَبَ على نفسه الرحمةَ أنَّهُ لايَغْفِرُهُ أبدًا ، ومن خَصائصِ الإلهيَّةِ ، العُبوديَّةُ التى لاتَقومُ إلَّا على ساقِ الحُبِّ والذُّلِّ ، فمنْ أعْطاهُما لغَيْرِه ، فقدْ شَبَّهَهُ باللَّه سُبحانهُ وتعالى فى خالِصِ حَقِّه ، وقُبْحُ هذا مُسْتَقِرٌّ فى العقولِ والفطَرِ ، لكنْ لَمَّا غَيَّرَتْ الشياطينُ فِطَرَ أكثَرِ الخَلْقِ واجتالَتْهُمْ عن دينهم وأمَرَتْهُمْ أنْ يُشْرِكوا باللهِ مالمْ ينزِّل بهِ سُلْطانًا ـ كما رَوَى ذلكَ عنِ اللهِ أعْرَفُ الخَلْقِ بهِ وبِخَلْقه ـ عَمُوا عن قُبْحِ الشِّرْكِ حتَّى ظنُّوهُ حَسَنًا (**) ،ومنْ خَصائصِ الإلهيَّةِ السُّجودُ ، فمنْ سَجَدَ لغيرِه فقد شَبَّهَهُ بهِ ، ومنها التَّوكُّلُ ، فمنْ توكّلَ

(*) وهى التفرُّد: الضمير هى يعود إلى خصائصِ الإلهية قبله، أى: وخصائص الإلهية التَفرُّد بملك الضر والنفع..الخ.

(**) قولهُ ـ كما روى ذلكَ عن الله أعرفُ الخَلقِ بهِ وبخَلقه ـ جملة معترضة لامحل لها من الإعراب، وأعرفُ الخلق بالله هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يشير بذلك إلى الحديث الذى أورد مضمونه قبل هذه العبارة وقوله «عموا عن قبح الشرك.. الخ» متصل بالكلام الذى بعد الاستدراك فى قوله: «لكن لما غيَّرت .. الخ» (طاء)

على غيرِه فَقَدْ شَبَّهَهُ بِه ، ومنها التَّوْبَة ، فمنْ تابَ لغيرِه فقدْ شَبَّهَهُ بِهِ ، ومنها الحَلِفُ باسمه فمن حلفَ بغيرِه فقد شبَّهَهُ به. ومنهاالذَّبْحُ له ، فمنْ ذَبَحَ لغيره فقدْ شبَّهَهُ بهِ. ومنها حلْقُ الرَّأسِ . . إلى غيرِ ذلكَ.

من تشبَّهَ بالله قصَمَهُ الله:

هذا فى جانبِ التشبيهِ ، وأما فى جانبِ التشبُّه ، فمن تعاظَمَ وتكبَّرَ ودعا الناسَ إلى إطرائه ورجائه ومخافته فقد تشبَّهَ بالله ونازعَهُ فى ربوبيته وهو حقيقٌ بأن يهينَهُ اللهُ غايةَ الهوانِ، ويجعلَهُ كالذَّرِّ تحتَ أقدامِ خلقه وفى الصحيحِ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: العَظَمَةُ إزارى ، والكبرياءُ ردائى ، فمنْ نازَعنى فى واحدٍ منهُما عَذَّبتُهُ»(١). وإذا كان المصوِّرُ الذى يصنعُ الصُّوَرَ بيده من أشَدِّ النَّاس عذابًا يومَ القيامةِ لتشبُّهه باللهِ فى مجَرَّدِ الصنعة ، فما الظَّنُّ بالمشبه باللهِ فى الربوبيةِ والإلهيةِ كما قال ﷺ «أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامة المصوِّرونَ يقالُ لهُمْ أحيُوا ماخلَقتمْ»(٢) وفى الصحيحِ عنه ﷺ أنهُ قالَ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ومنْ

---

(١) الحديثُ أخرجَهُ مسلم من روايةِ أبى سعيد الخدرىّ وأبي هريرة بلفظ «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العزُّ إزارُه والكبرياءُ رداؤُه، فمن ينازعنى عذّبته»، ورواه البرقانى في مستخرجه من الطريق الذي أخرجه مسلم ولفظه «يقول الله عز وجل العزُّ إزارى والكبرياءُ ردائي فمن نازعنى شيئًا منهما عَذَّبتُهُ». ورواه أيضا أبو داود وابنُ ماجة وابنُ حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة بلفظ «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى :الكبرياءُ ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار»: ومعنى نازعنى تخلَّقَ بذلك فيصيرُ فى معنى المشارك: قال الخطابى فى المعالم معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه وتعالى واختصَّ بهما لايشركهُ أحدٌ فيهما ولا ينبغى لمخلوقٍ أن يتعاطاهما لأنَّ صفةَ المخلوق التواضعُ والتذللُ، وضَرَبَ الرداءَ والإزارَ مثلاً فى ذلك، يقول والله أعلم كما لايُشْرَكُ الإنسانُ فى ردائه وإزاره، فكذلك لايشركنى فى الكبرياء والعظمةِ مخلوق. واللهُ أعلمُ.

(٢) الحديث في الصحيحين «عن عبد الله بن عمرَ قال سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنَّ أشَدَّ الناس عذابا يوم القيامة المصوِّرون» ورواه النسائى أيضا: وهذه =

أظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يخلُقُ كَخَلقى فليَخْلُقُوا ذرَّةً فلْيَخْلُقوا شَعيرَةً»(١) ، فنبَّهَ بالذَّرَّةِ والشعيرةِ على ماهو أعظمُ منهما. وكذلكَ من تشبَّهَ به تعالى فى الاسم الذى لاينبغى إلّا لهُ كمَلِكِ المُلوكِ وحاكِمِ الحُكَّامِ وقاضى القضاة ونحوه. وقد ثبتَ فى الصحيحِ عن النبى ﷺ أنه قال«إنَّ أخْنَعَ الأسماء عندَ اللّه رجُلٌ تسمَّى بشاهان شاه (ملك المُلوك) لامالكَ الا اللهُ». وفى لفظ «أغْيَظُ رجُلٍ عندَ اللّه رجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأملاكِ»(٢).

التشبيه والتَّشَبُّه هوَ حقيقةُ الشِّرْك:

وبالجملةِ ، فالتشبيهُ والتشبُّه هو حقيقةُ الشركِ ولذلك كان مَن ظَنَّ أنهُ إذا تقرَّبَ إلى غيره بعبادةٍ مَّا يقرِّبُهُ ذلك الغيرُ إليه تعالى فإنهُ يُخْطِئُ لكونه شَبَّهَهُ به وأَخَذَ مالا ينبغى أن يكون إلا لهُ. فالشِّرْكُ مَنْعُهُ سبحانه وتعالى حقَّهُ فهذا قبيحٌ عقلا وشرعًا ، ولذلكَ لم يشرع ولم يُغْفَرْ لفاعلهِ.

اتِّخاذُ الشُّفَعاء إساءةٌ بالغَةٌ :

واعلمْ أنَّ الَّذى ظنَّ أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى لايسمعُ لهُ أو لايستجيبُ

= الرواية لايرد عليها شيء. وفي رواية لمسلِم «إن من أشد أهلِ النار يومَ القيامة عذابًا المصوِّرون» وعليها يرد الإشكالُ النحوىُّ من رفع اسم إنَّ والجواب عنه: وفى الباب أحاديثُ كثيرةٌ تفيد تحريم التصوير وعلة النهي ظاهرة. وقد بيَّنَّا الحكم فى ذلك والرَّدَّ على من أباحه من المنتسبين إلي العلم في زماننا هذا في تعليقنا على عمدة الأحكام، فانظره. وقوله أحيُوا ماخلقتُم أي اجعلوه حيوانًا ذا روحٍ ، وهذا الأمرُ يسمى أمرَ تعجيز. ومعنى خلقتم قدَّرتُم وصوَّرتُم.

(١) الحديثُ فى الصحيحين مطولا عن أبي هريرة: وقوله«ومَن أظلمُ» أي ولا أحَدَ أظلمُ ممن قصد حال كونه يخلق أي يصنع. والذرة بفتح الذال المعجمة وتشديد الراء النملة الصغيرة. والغرضُ تعجيزهم تارة بخلق الجماد وأخرى بخلق الحيوان.

(٢) هو فى صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال «إنَّ أخنع اسم عند الله عز وجل رجلٌ تسمى« ملك الأملاك» زاد ابن أبي شيبة في روايته «لامالك إلّا اللهُ عزَّ وجل» قال الأشعثى قال سفيان مثل شاهان شاه. وقال أحمدُ بنُ حنبل سألتُ أبا عمرو عن أخنع فقال أوضع.

له إلا بواسطة تُطْلعهُ على ذلك أو تسألُ ذلكَ منه فقد ظنَّ باللهِ ظنَّ السَّوْءِ فإنه إنْ ظنَّ أنه لايعلمُ أو لايسمعُ إلا بإعلامِ غيرِهِ له وإسماعِهِ فذلكَ نفيٌ لِعِلْمِ اللهِ وسَمْعِهِ وكمالِ إدْراكه وكفى بذلك ذنبًا.

وإن ظن أنه يسمعُ ويرى ولكن يحتاجُ إلى من يُلَيِّنُهُ ويُعَطِّفُهُ عليهم فقد أساء الظنَّ بإفْضالِ ربِّهِ وبرِّهِ وإحسانِهِ وسَعَةِ جوده. وبالجملة ، فأعظمُ الذنوبِ عندَ اللهِ تعالى إساءةُ الظنِّ به ، ولهذا يتوعدُهُم فى كتابه على إساءة الظنِّ به أعظمَ وعيد ، كما قالَ اللهُ تعالى ﴿**الظَّانِّينَ بالله ظَنَّ السَّوْء عَلَيْهِمْ دائرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُم جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً**﴾[1] ، وقالَ تَعالى عَنْ خَليله إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام ﴿**أئفْكًا ءالهَةً دُون اللَّه تُريدون * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ**﴾[2] أى: فَما ظَنُّكُمْ أنْ يُجَازيكُمْ إذا عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وظَنَنتم أنهُ يحتاجُ فى الاطِّلاعِ على ضرورات عبادِهِ لِمَنْ يكونُ بابًا للحوائجِ إليهِ ونَحوِ ذلكَ. وهذا بخلافِ الملوكِ فإنَّهُم محتاجونَ إلى الوسائطِ ضرورةً لحاجتهمْ وعَجزِهمْ وضَعفِهِم وقُصُورِ عِلمِهِمْ عن إدراكِ حوائجِ المضطرِّينَ. فأمَّا من لايشغَلُهُ سمعٌ عن سمع ، وسَبقتْ رَحمتُهُ غَضَبَهُ وكتبَ على نفسِه الرحمةَ فما تصنعُ الوسائطُ عندَهُ ، فمنِ اتَّخذَ واسطَةً بينَهُ وبينَ اللهِ تعالى فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ ، ومُسْتَحيلٌ أن يَشْرَعَهُ لِعِبادِهِ بلْ ذلكَ يمتنعُ فى العقولِ والفِطَرِ.

عَدَمُ جَوازِ الخضوعِ والتألُّه

واعلَمْ أنَّ الخُضوعَ والتألُّهَ الذى يجعلُهُ العبدُ لتلكَ الوسائطِ قبيحٌ فى نفسه ، كما قررناهُ لاسيَّما إذا كان المجعولُ لهُ ذلكَ عبدًا للمَلِكِ العَظيمِ

---

(١) الفتح: ٦ (٢) الصَّافَّات: ٨٦و٨٧

الرَّحيم القريب المُجيب ومملوكًا لهُ كما قال تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾(١) أيْ إذا كانَ أحدُكُمْ يأنَفُ أن يكونَ مملوكُه شريكَه في رزقه ، فكيفَ تجعلونَ لي منْ عَبيدي شُركاءَ فيمَا أنَا مُنْفَرِدٌ بِهِ وَهُوَ الإلهيَّةُ الَّتي لاتَنبغي لغَيْري وَلاَ تَصْلُحُ لِسواىَ ، فمنْ زعَمَ ذلكَ فما قَدَرَني حقَّ قَدْري(*) ولا عَظَّمَني حقَّ تعظيمي؛ وبالجُمْلَة فَما قَدَرَهُ حقَّ قَدْره (**) مَنْ عَبَدَ مَعَهُ مَنْ ظَنَّ أنَّهُ يُوَصِّلُ إليه ، قالَ تعالى ﴿يا أيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذينَ تَدعُونَ من دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾(٢) الآيَة. . . إلى أنْ قالَ ﴿ماقَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيز﴾(٣) ، وقَالَ تَعالى ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه وَالأرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يوْمَ القِيامَةِ والسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه سُبْحَانَهُ وتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤)

فَما قَدَرَ القَوِيَّ العزيزَ حَقَّ قَدْرِه مَنْ أشْرَكَ مَعَهُ الضَّعيفَ الذَّليل(***)

أصلُ ضَلالِ الطَّوائف الضَّالَّة:

واعْلَمْ أنَّكَ إذا تأمَّلْتَ جَميعَ طَوائِف الضَّلال والبِدَعِ وَجَدْتَ أصلَ ضَلالِهِمْ راجعًا إلى شَيْئين: أحَدُهُمَا الظَّنُّ باللَّه ظَنَّ السَّوْء ، والثَّاني لَمْ يَقْدُرُوا الرَّبَّ حقَّ قَدْرِه ، فَلَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِه مَنْ ظَنَّ أنهُ لم يُرسِلْ رَسولا ولا أنزلَ كتابًا بلْ تركَ الخَلقَ سُدًى وخَلَقَهُمْ عبثًا ،ولا قَدَرَهُ حقَّ

(١) الروم: ٢٨ (٢) الحج: ٧٣ (٣) الحج: ٧٤ (٤) الزمر: ٦٧

(*) «وما قدروا الله حق قدره» أي ماعظَّموه حق تعظيمه

(**) «في الأصل (فَمَا قَدَرَ حق. . .) بدون الهاء

(***) الضعيف الذليل: أي المخلوقُ حيًّا كانَ أو ميتًا، جمادًا كانَ أو حيوانًا. فجميعُ الخَلقِ ضِعافٌ أذِلاء لايملِكونَ لأنفُسِهِمْ ضرًّا ولا نَفعًا، فكَيفَ يُحقِّقونَ ذلكَ لِغَيْرِهِمْ (طاء)

قَدْره مَن نفى عُمُومَ قُدْرَته وتَعلُّقهَا بأفعَال عبَاده منْ طاعَتهمْ ومَعَـاصيـهمْ وأخْرَجهُمَا عَنْ خلْقه وقُدْرَته ، ولاَ قدرَ اللهَ حَقَّ قدْره أضدادُ هؤُلاء الَّذين قَالُوا إنَّهُ يُعاقبُ عَبْدَهُ عَلى مالَمْ يفعَلْهُ بَلْ يُعاقبُهُ عَلَى فعْله سبْحانَهُ وتَعالَى وإذَا استَحـالَ فى العُقُول أنْ يُجبرَ السيِّدُ عـبدَهُ على فعْلٍ ثُمَّ يُعاقبَهُ عَليـه فكَيفَ يَصْدُرُ هذا منْ أعْدَل العَادلين. وقَوْلُ هؤُلاء شَرٌّ منْ أشْباه المجُوس الـقَدَريَّة الأذَلِّيـن ، ولاَ قَدرَهُ حَقَّ قَدْرِه ، مَنْ نَفَى رَحْمَتَهُ ورضَاهُ ومَحبَّتَهُ وَغَضَبَهُ وَحِكمَته مطلقًا وحقيقةَ فعْله ، ولم يجعل له فعلا اختياريا ، بل أفعاله مـفعولات منفصلة عنه. ولا قَدرَهُ حقَّ قَدْرِه مَنْ جعلَ لهُ صـاحبةً وولدًا أوْ جعلهُ يَحلُّ فى مَخلوقـاته أو جَعلهُ عينَ هذا الوُجود. ولا قَدرَهُ حقَّ قَدْرِه من قـالَ إنَّهُ رَفَعَ أعداءَ رَسـوله وأهْلِ بيته وجـعلَ فيـهمُ المُلْكَ ووضعَ أوْلياءَ رسوله وأهلِ بيتـه وهذا يتضمَّنُ غايةَ القَدْحِ فى الربِّ تعَالَى اللَّهُ عنْ قولِ الرَّافضَة. وهذا مُشْتَقٌّ من قول اليهودِ والنصارى فى قولِ ربِّ العالمينَ :إنهُ أرسلَ مَلكًا ظالمًا فادَّعَى النُّبوَّة وَكَذَبَ على اللَّه ، ومكَثَ زَمَناً طويلا يقولُ أمَرنى بكَذا ونَهـانى عنْ كذا ويستـبيحُ دمَاءَ أبْناء اللَّه وأحبَّائه والربُّ تعالى يُظْهِرُهُ ويُؤيِّدُهُ ويقيمُ الأدلَّةَ والمُعْجزات على صدقه ويُقْبلُ بقُلوبِ الخَلْقِ وأجسادِهمْ إليه ، ويُقـيمُ دولَتَهُ على الظُّهُورِ والزِّيَادَة ويُذلُّ أعْداءَهُ أكثـرَ منْ ثمانمائة عـامٍ. فَوازنْ بينَ قول هؤُلاء وقَوْل إخْوانهمْ منَ الرَّافضَة ، تَجدْ القَوْلَين سَواء ، ولا قَدرَهُ حَقَّ قَدْرِه مَنْ زعَمَ أنَّهُ لايُحْيِى المَوْتَى ولا يَبْعَثُ مَنْ فى القُبـورِ ليُبيِّنَ لعـبادهِ الذى كـانوا فيـه يختلفـونَ وليَعلَمَ الَّذينَ كفَرواْ أنَّهُمْ كانوا كاذبينَ.

عابدُ غَيْر اللَّه إنَّمَا يَعْبُدُ الشيْطان:

وبالجُمْلَة ، فَهَذا بابٌ واسعٌ ، والمقصودُ أنَّ كُلَّ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ غيرَهُ

فإنَّمَا عبدَ شـيطانًا. قالَ تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يابَنِى ءَادمَ أَن لاتَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾[1]. فـمَا عَبَدَ أحدٌ أحدًا من بَنى آدَمَ كائنًا منْ كـانَ إلا وقَدْ وَقَعَتْ عِبادَتُهُ للشَّيْطانِ فَيَسْتَمْتِعُ العـابِدُ بـالمعـبـودِ فى حُصـولِ غَرَضِه، ويَسْتَمْتِعُ المعبودُ بالعابدِ فى تعـظيمه لهُ وإشْراكه معَ الله تَعالَى وذلكَ غايةُ رِضَى الشَّيْطان. ولهذا قالَ تَعالَى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يامَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإنس﴾[2] أىْ مـنْ إغْوائِهِمْ وإضْلالِهِمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيآؤُهُم مِّنَ الإنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدينَ فيها إلا ماشاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ﴾[2] فَهذه إشارَةٌ لَطيفَةٌ إلى السِّرِّ الَّذى لأجْله كانَ الـشِّرْكُ أكبَرَ الكَبائِرِ عندَ الله وأنَّهُ لايُغْفَرُ بغيرِ التوبة منه، وأنَّهُ موجِبٌ للخُلودِ فى العَذابِ العظيمِ، وأنهُ ليسَ تحريمُهُ قُبْحَه بمُجَرَّدِ النَّهيِ عنهُ فقطْ، بَلْ يستحيلُ على اللَّه سُبـحانَهُ وتَعَالى أنْ يَشْرَعَ لِعبادِه عِبادَةَ إلهٍ غَيْره كَمَا يَسْتَحـيلُ عَليهِ مـايُناقِضُ أوصافَ كـمالِهِ ونُعوتَ جَلالِه.

تَقسيمُ العِبادَةِ من حَيثُ الاستِعانَة

أقْسامُ النَّاسِ فى عِبادَةِ اللَّه:

وَاعْلَمْ أنَّ الـنَّاسَ فـى عِبادَةِ الله تَعَالـى والاسْتِعانَة بـه أقْسامٌ: أجلُّها وأفضَلُها أهلُ العبادة والاستـعانَة بالله عَليها، فَعبادَةُ اللَّه غايةُ مُرادِهِمْ، وطَلَبهم منهُ أنْ يُعينَهُمْ عليها ويُوَفِّقَهُمْ للقيامِ بِها نِهايَةُ مقصودِهِمْ، ولهذا كانَ أفـضَلُ مايُسْألُ الرَّبُّ تعالى الإعـانةَ على مَرْضاته، وهو الذى عَلَّمَهُ النبيُّ ﷺ لمُعاذ بن جبَل، فقالَ: «يامُعاذُ، والـلَّه إنِّى أُحبُّكَ فَلا تَدَعْ أنْ تقولَ فى دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّى على ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ

---

(1) يس: ٦٠

(2) الأنعام: ١٢٨

عبادَتكَ»[1] ، فَأنْفَعُ الدُّعـاءِ طَلَبُ العَوْنِ عَلـى مَرْضـاته تَعَالَى: ويُقـابِلُ هَؤُلاء القِسْمُ الثَّانِى ، المُعرِضـونَ عَنْ عِبـادَته والاسْتعانَة به ، فَلاَ عِبـادَةَ لَهُمْ وَلا اسْتعَانَة ، بَلْ إن سَأَلَهُ تَعـالى أحَدُهُمْ واسْتَعـانَ به فَعَلَى حُظوظه وشَهَواته واللَّهُ سُبحـانهُ وَتعالى يسـألُهُ من فى السمـوات والأرْض ويسألُهُ أوليـاؤُهُ وأعْداؤُهُ فَيُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاء ، وأبغَضُ خَلْق الله إبليسُ ، ومَعَ هذا أجـابَ سُؤْلَهُ وقَضى حـاجَتَهُ ومَتَّعَهُ بهـا ، ولكنْ لـمَّا لَمْ تكُنْ عَوْنًا على مَرْضاته كـانتْ زيادَةً فى شقْوَته وبُعْده. وهكذا كُلُّ من سـألَهُ تَعالى واسْتعانَ بـه على مالَمْ يكنْ عَونًا له على طَاعَته كان سُؤالُهُ مبـعدًا له عن اللَّه(*) فَلْيَتَدَبَّرِ العاقلُ هذا ولْيَعْلَمْ أنَّ إجابَةَ الله لسُؤال بـعضِ الـسَّائلـينَ ليستْ لكَرامَته عليه بَلْ قد يسألُهُ عبدُهُ الحاجَةَ فـيقضيها لهُ وفيها هَلاكُهُ ، ويكونُ منعُهُ منها حمايةً لهُ وصيانةً ، والمعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ. والإنْسانُ على نفسه بصيرَةٌ.

الإكرام والإهانة بالتقوى أو عدمها:

وعَلامَةُ هذا أنَّكَ تَرى مَنْ صانَهُ اللَّهُ منْ ذلكَ وهوَ يجهَلُ حـقيقةَ الأمرِ إذا رآهُ سبحانَهُ وتعالَى(**) يقضى حَوائِجَ غيرِه يُسىءُ ظَنَّهُ بِه تَعالى وقلبُهُ

(١) خَرَّجَهُ أبو داود وأحمد بنُ حنبل ورواه النسائىُّ بسندٍ قوىٍّ على ماقالَهُ ابنُ حجَرٍ فى كِتابِه «بلوغ المرامِ منْ أدلَّة الأحْكام».

(*) أى كَسؤالِ إبليس، فقـد كان سؤاله استعانة به عـلى مالم يكن عونا له على طاعة ربه، فإنه لما قال: ﴿رب فأنظـرنى إلى يوم يبعـثون* قـال فـإنك من المنظرين* إلى يوم الـوقت المعلوم﴾ فقال إبليس: ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين﴾[ص: ٨٣,٧٩] ، فكان ذلك زيادة فى شقوة إبليس، وزيادة فى بعده عن رحمة الله عز وجل.

(**) إذا رآه سبحانه وتعالى: الهاء فى رآه ترجع إلى لفظ الجلالة قبلها، والمعنى أن العبد قد يسأل ربه حاجـة فيمنعه سبحـانه منها حماية له وصيانـة من مكروه قد يقع له لو قضى له هذه الحاجـة، وإن بعض العباد يجهل هذه الحـكمة ويرى غيره تجـاب دعوته فلِقِصَرِ نظره يسىء الظن بالله، وقد يسخط على الأقدار والعياذ بالله (طاء).

مَحْشُوٌّ بذلكَ وهوَ لايشعُر؛ وأمَارَةُ ذلكَ حَمْلُهُ على الأقدارِ وعتابُهُ في الباطنِ لَها ، ولقد كشفَ اللَّهُ تَعالَى هذا المَعنى غايَةَ الكشْفِ في قولِهِ تعالى ﴿فَأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاهُ ربُّهُ فَأكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقولُ ربِّى أكْرَمَن* وأمَّا إذا ما ابْتَلاهُ فقَدَرَ عَلَيْه رزْقَهُ فيَقُولُ ربِّى أهَانَن* كَلَّا ﴾[1]. أىْ لَيْس كُلُّ مَنْ أعْطَيتهُ ونَعَّمْتُهُ وَخَوَّلْتُهُ فقدْ أكرَمْتُهُ ومَا ذاكَ لكَرامَته عَلَيَّ ولكنَّهُ ابْتلاءٌ منِّى وامتحانٌ له أيَشْكُرُنى فأُعطيَه فوقَ ذلكَ أمْ يكْفُرُنى فأسْلُبَه إيَّاه وأُحوِّلَه عَنْهُ لغَيْره ، وليسَ كُلُّ مَنِ ابتليْتُهُ فَضيَّقْتُ عليه رزقَهُ وجعلتُه بِقَدَرٍ لايَفْضُلُ عنهُ فذاكَ منْ هوانه عليَّ ولكنَّهُ ابتلاءٌ وامتحانٌ لهُ منِّى ، أيَصْبِرُ فأعطيه أضعافَ مافاتَهُ أمْ يسخَطُ فيكونَ حظُّه السُّخْط .

وبالجُمْلَة فأخبرَ تعالى أنَّ الإكرامَ والإهانَةَ لايدوران على المالِ وسعَة الرزقِ وتقديرِه فإنَّهُ سبحانهُ وتعالى يُوَسِّعُ على الكافرِ لا لكرامته ويُقَتِّرُ على المؤْمنِ لا لهوانه عليه ، وإنما يُكْرِمُ سبحانهُ وتعالى مَن يُكرمُ من عباده بأنْ يوفِّقَهُ لمعرفَتِه ومَحَبَّتِه وعبادتِه واسْتعانَتِه. فغايَةُ سعادَةِ الأبَدِ في عبادَةِ اللَّه والاسْتعانَة به عليها.

القَسمُ الثالثُ مَنْ لَهُ نَوْعُ عبادَة بلاَ اسْتعانَة. . وهؤلاء نَوْعَان: أحَدُهُمَا أهْلُ القَدَرِ القائلونَ:(*) بأنهُ سبحانَهُ وتعالى قَدْ فعلَ بالعبدِ جميعَ مقدوره منَ الألطافِ وأنَّهُ لمْ يَبقَ في مَقدورِهِ إعانةٌ لهُ على الفعلِ فإنهُ قد أعانَهُ بخلقِ الآلاتِ وسلامَتِها وتعريفِ الطريقِ ، وإرسالِ الرسولِ وتمكينِه من الفعْلِ ، فلمْ يبقَ بعدَها إعانةٌ مَقدورَةٌ يَسألُهُ إيَّاهَا ، وهؤلاءِ مَخذولونَ

(1) الفجر: ١٥: ١٧

(*) سيلقى المقريزى بعد قوله «أهل القدر القائلون: ضوءا على بعض معتقدات القدرية مما أبعدهم عن السلامة وعن الصحة في الاعتقاد. والمقصود بلفظ «الآلات» فى الفقرة: الحواسّ التى هى وسائل الإدراك والفهم، وكذلك الجوارح (طاء).

مُوكُولُونَ إلى أنفُسِهِمْ مسدودٌ عليهِمْ طريقُ الاستعانَة والتَّوحيد. قال ابنُ عَبَّاسٍ رضى اللَّهُ عنهُمَا: الإيمانُ بالقدَرِ نِظامُ التوحيدِ فَمَنْ آمَنَ باللَّهِ وكَذَّبَ بقَدَرِهِ نَقَضَ تَكذيبُهُ تَوْحيدَهُ.

النَّوْعُ الثانى: مَنْ لهُمْ عِبادَةٌ وأوْرادٌ ولَكِنَّ حظَّهُمْ ناقصٌ مِنَ التَّوَكُّلِ والاستعانة لَمْ تَتَّسِعْ قُلوبُهُمْ لارْتباطِ الأسْبابِ بالقدَرِ، وأنَّها بدونِ المقدورِ كالمَوَاتِ الَّذى لاتأثيرَ لهُ بَلْ كالعَدَمِ الذى لاوُجودَ لهُ وأنَّ القَدَرَ كالرُّوحِ المُحركِ لها، والمُعَوَّل على المحرِّك الأوَّلِ، فلمْ تَنفُذْ بَصائرهُم مِن السببِ إلى المُسبِّبِ وَمِن الآلةِ إلى الفاعلِ(*) فَقَلَّ نصيبُهُمْ من الاستعانَة. وهؤُلاءِ لهِمْ نصيبٌ من التصرُّف بِحَسَبِ استعانَتِهِمْ وتوكُّلِهِمْ ونصيبٌ مِنَ الضَّعفِ والخذْلانِ بِحَسَبِ قلَّة استعانَتِهِمْ وتَوَكُّلِهِمْ ولَوْ تَوَكَّلَ العبدُ على اللَّهِ حَقَّ توكُّلِهِ فى إزالةِ جبلٍ (يُرادُ إزالَتُهُ) عن مكانه لأزالَهُ.

بيان معنى الاستعانة

تفسيرٌ لحقيقة الاستعانة عملاً:

فإنْ قيلَ ماحقيقةُ الاستعانة عملا؟ قُلنا هىَ التى يُعَبَّرُ عنها بالتوكُّلِ وهى حالةٌ للقلبِ تنشأُ عنْ معرفةِ اللهِ تعالى وتَفَرُّدِهِ بالخلقِ والأَمْرِ والتدبيرِ

(*) الضمير فى قوله: «وأنها بدون المقدور» وفى قوله: «وأن القدر كالروح المحرك لها» يرجع إلى «الأسباب» الواردة فى قوله «لارتباط الأسباب بالقدر» فى نفس الفقرة. ومعلوم أن الأسباب لاتؤدى إلى الغاية المنشودة، ولا يتحقق بها الغرض المطلوب إلّا إذا كان ذلك مُقَدَّرًا ومُرادًا للَّه عزَّ وجلَّ، فهو خالق الأسباب والمسبَّبات، وهذا مايجب الإيمانُ به مع حسنِ التوكلِ على الله والاستعانة به سبحانه فى كل الأمور صغيرها وكبيرها وهذا الفريق من العُبَّادِ لم يربطوا بين السبب ومُسبَّبه سبحانه وتعالى، ولا بين الآلة كاليد واللسان ونحوهما وبين الفاعل الحقيقى الخالق لكل شئ بقدرته وحده، فهو سبحانه الذى يخلق الفعل إذا أراد إظهارَهُ على يد عبدٍ من عبادهِ وليس للعبد إلّا الاختيار والميل، ولكن القدرة على الإيجاد لا تكون إلَّا بإقدار الله تعالى وإرادته ومشيئته فما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون (طاء).

والضُّرِّ والنَّفْعِ وأنَّهُ ماشاءَ كانَ وما لمْ يشأْ لمْ يكُن فتوجب اعتمادًا عليه وتفويضًا إليهِ وثقةً بهِ ، فتصيرُ نِسْبَةُ العبدِ إليه تَعالى كَنسْبَةِ الطِّفْلِ إلى أبوَيْه فيما ينوبه منْ رغبتِه ورهبته ، فلوْ دهمَهُ ماعَسى أنْ يدهَمَهُ من الآفاتِ لمْ يلتجئْ إلى غيرِهمَا. فإنْ كانَ العبدُ معَ هذا الاعتماد من أهلِ التقوى كانتْ لهُ العاقبةُ الحميدَةُ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(١) ، أىْ كافيه.

القسمُ الرابِعُ: مَنْ لهُ استعانةٌ بلاَ عِبادَةٍ(*) وتلكَ حالةُ مَنْ شَهِدَ تَفَرُّدَ اللَّهِ بالضُّرِّ والنَّفْعِ ولمْ يَدْرِ بمَا يُحبُّهُ ويرضاهُ فتوكَّلَ عليهِ فى حُظوظِه فأسعفهُ بها سواءٌ كانَتْ أموالًا أو رياساتٍ أو جاهًا عندَ الخلقِ أو نحوَ ذلكَ ، وهذا لاعاقبةَ لهُ، فذلكَ حظُّهُ من دنياهُ وآخرتِه.

الإخْلاصُ والاتّباعُ بهِما النَّجاةُ:

واعْلَمْ أنَّ العبدَ لايكونُ متحقِّقًا بعبادةِ اللَّهِ تعالى إلَّا بأصلينِ: أحدُهُما متابعةُ الرَّسولِ ﷺ، والثانى إخلاصُ العبوديةِ. والناسُ فى هذينِ الأصلينِ

---

(١) الطلاق: ٢-٣

(*) يتلخص من هذا أن الناس في عبادة الله والاستعانة به أربعة أقسامٍ هى:

١- أفضلها هم أهل العبادة والاستعانة بالله عليها وطلب عونه سبحانه على مايحقق مرضاتَهُ من القولِ أو الفعلِ.

٢- المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة لهم ولا استعانة ولا يذكرون الله إلا عند حاجتهم الدنيوية.

٣- من له نوع عبادة ولا يستعينون بالله عليها، وهما نوعان بيّنهما المؤلف .

٤- منْ لهُ استعانَةٌ بلا عبادَة، فهوَ موقنٌ بأنَّ اللَّهَ بيَده كُلُّ شيْءٍ فَيُلِحُّ بالدُّعاء يطلبُ حاجاته الدُّنيويَّة غافلاً ومُنصرفاً عنْ عبادَة ربِّه، فهُوَ لذلكَ محرومٌ منْ نعيمِ الآخرَة، إنْ ماتَ عَلَى هذا بِلاَ تَوبَةٍ نَصُوحٍ . «راجع ما جاء عن القسم الرابع فى صفحة ٧١ من هذا الكتاب ففيه تفصيل وتوضيح»

هذه خُلاصَةٌ للأقسامِ الأربعة التي بيَّنَها المُؤلِّفُ، والمُؤمنُ حَقًّا هُوَ مَنْ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى طاعَتِهِ والتَّوْفيقِ للعَمَلِ الَّذي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى.

على أربعةِ أقسامٍ: الضرب الأول: أهلُ الإخلاصِ والمتابعةِ . . فأعمالُهُمْ كُلُّها لله وأقوالُهُمْ وَمَنْعُهُمْ وإعْطاؤُهُمْ وحُبُّهُمْ وبُغْضُهُمْ كُلُّ ذلكَ لله تعالى لايريدونَ منَ العبادِ جزاءً ولا شُكورًا ، عَدُّوا الناسَ كأصحابِ القُبورِ لايملكونَ ضُرًّا ولا نفعًا ولا مَوْتًا ولا حياةً ولا نُشورًا فإنَّهُ لايُعاملُ أحداً منَ الخلقِ إلَّا لجهلِه بالله وجهله بالخَلْقِ. والإخلاصُ هوَ العملُ الَّذى لايَقْبَلُ اللَّهُ من عاملٍ عملا صوابًا عاريًا منهُ ، وَهُوَ الَّذى ألزَمَ عِبادَهُ به إلى الموت. قال اللهُ تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]، وقالَ ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2] ، وأحسنُ العملِ أخلَصُهُ وأصْوَبُهُ. فالخالصُ أنْ يكونَ للَّه ، والصَّوابُ أنْ يكونَ على وفْقِ سنة رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وهذا هوَ العملُ الصالحُ المذكورُ فى قولْه تَعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[3] ، وَهُوَ العملُ الحسَنُ فى قولِه تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[4] وَهُوَ الذى أَمَرَ بِهِ النَّبىُّ ﷺ فى قولِه «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْه أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» [5] ، وَكلُّ عملٍ بِلا مُتابعَةٍ فإنَّهُ لايَزيدُ عامِلَهُ إلَّا بُعْدًا منَ

(١) تبارك: ٢

(٢) الكهف: ٧

(٣) النساء: ١٢٥

(٤) الكهف: ١١٠

(٥) خرَّجَهُ البخارىُّ وَمُسْلمٌ عن عائشةَ رضىَ اللَّهُ عنها بِلَفْظ «قالتْ قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : «مَنْ أحْدَثَ فى أمرِنا هذا ماليسَ منه فَهُو رَدٌّ» وفى رِوايةٍ لِمُسْلِمٍ «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً ليسَ عليهِ أمرُنا فهو رَدٌّ» وأخرجَهُ أيضًا أبو داوُدَ وابنُ ماجَة: وهذا الحديثُ أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الإسلامِ، فكُلُّ عملٍ لايكونُ عليهِ أمرُ اللَّهِ ورسوله فَهُوَ مَرْدودٌ على عامِلِهِ وكلُّ من=

اللَّه تعالى(*) ، فإنَّ اللَّهَ تعالى إنَّمَا يُعْبَدُ بِأمْرِهِ لا بالأَهْواءِ والآراءِ.

شرارُ الخَلْق:

الضربُ الثانى: مَنْ لا إخلاصَ لهُ ولا متابعةَ لهُ وهؤلاءِ شِرارُ الخلقِ وهم المتزيِّنونَ بأعمالِ الخيرِ يُراءُونَ بِها النَّاس ، وهذا الضَّرْبُ يكثُرُ فيمنْ انْحَرَفَ عنِ الصِّراطِ المسْتقيمِ مِنَ المنتَسبينَ إلى الفقْه والعلْمِ والفَقْرِ والعبادَة فإنَّهم يرتكِبونَ البِدَعَ والضلالَ والرياءَ والسُّمْعَةَ ويُحبُّونَ أنْ يُحمَدوا بما لم يَفْعَلوا. وفى أَضْرابِ هؤُلاءِ نَزَلَ قَوْلُهُ تعالى ﴿**لاتَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحبونَ أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفازَةٍ مِّنَ العَذابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ**﴾(١)

= أحدثَ فى الدِّينِ مالَمْ يأذَنْ بِهِ اللَّهُ ورسولُهُ فليسَ من الدينِ فى شئٍ ، هذا مَنطوقُ الحديث ومَفْهُومُه كُلُّ عملٍ عليهِ أمرُهُ فهوَ غيرُمردود. والمرادُ بأمرِه ههُنا دينُهُ وشَرْعُهُ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ أعمالَ العاملين كُلهم ينبغى أن تكونَ تحتَ أحكامِ الشريعةِ فتكون أحكامُ الشريعةِ حاكمةً عليها بأمرِها ونَهْيِها، فمنْ كانَ عملُهُ جارياً تحتَ أحكامِ الشريعةِ مُوافِقًا لَها فَهُوَ مقبولٌ ومَنْ كان َخارجًا عن ذلكَ فهو مردودٌ. واللَّهُ أعْلَمُ.

(*) أى كلّ عملٍ على غيرِ سنَّةِ النبىﷺ ولا متابَعَة لهُ ولا اقتداء بهِ فهو مردودٌ على صاحبِهِ، لأنَّ الرسولﷺ هو المُفَسِّرُ للشَّريعَةِ والمُعَلِّمُ لها بأفعالِهِ وأقوالِهِ وأوْجَب اللهُ علينا اتِّباعَهُ والاقتداء به، وقَدْ نبَّهَ ﷺ إلى ذلكَ فقالَ فيما يتَّصِلُ بالعِبادات: «خُذوا عنِّى»، وعلى هذا فإنَّ العمَلَ المقبول عندَ الله بإذنِهِ وإحسانِهِ هوَ الذى يتحققُ فيهِ الأمران: الإخلاصُ للَّهِ عزَّ وجلَّ، ومتابعةُ الرسولِ والاقتداءُ بهِ، والسيرُ على سُنته ﷺ (طاء)

(١) آل عمران: ١٨٨

الْغُلُوُّ مع عَدَمِ الْمُتابَعَةِ يَضرُّ العابِدَ:

الضَّرْبُ الثالثُ: مَنْ هوَ مخلصٌ فى أعمالِهِ لكنَّهَا على غيرِ مُتابَعةِ الأمرِ، كجُهَّالِ العُبَّادِ والمنتسبينَ إلى الزُّهْدِ والفقرِ وكُلّ من عبدَ اللهَ على غيرِ مُرادِه؛ والشَّأنُ ليسَ فى عبادَةِ اللَّه فقطْ، بَلْ فى عِبادَةِ الله كَما أرادَ اللَّهُ. ومنهُمْ مَنْ يمكُثُ فى خَلَواتِهِ تارِكًا للْجُمْعَةِ، ويرى ذلكَ قُرْبَةً ويرى مُواصلَةَ صومِ النهارِ والقيامِ بالليلِ قُرْبةً، وأنَّ صِيامَ يومِ الفِطْرِ قُرْبَةٌ وأمثالَ ذلكَ(*).

والرِّياءُ مُحْبِطٌ للعبادات:

الضَّرْبُ الرابعُ: مَنْ أعْمالُهُ على متابعةِ الأمر، لكنَّها لغيرِ اللَّه تعالى كَطاعات المُرائينَ، وكالرَّجُلِ يقاتلُ رياءً وَسُمعَةً وَحَمِيَّةً وشجاعةً وللمَغْنَمِ، وَيَحُجُّ لِيُقالَ، ويقرأُ لِيُقالَ، وَيُعَلِّم ويؤَلِّفُ لِيُقالَ، فهذه أعمالٌ صالحةٌ لكنَّها غيرُ مقبولَةٍ؛ قالَ تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[1] فلمْ يُؤْمَرَ الناسُ إلا بالعِبَادَةِ على المتابعةِ والإخلاصِ فيها، والقائمُ بِهِمَا هُمْ أهْلُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

صُوَرٌ مِنَ الغُلُوِّ وأخْذِ الشَّريعة منْ جهة واحدة:

ثُمَّ أهلُ مَقَامِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لَهُمْ فى أفضلِ العبادةِ وأنفَعِهَا وأحقِّها بالإيثارِ والتَّخصيصِ أربعةُ طرُقٍ، وهمْ فى ذلكَ أربعةُ أصنافٍ.

(*)وقَدْ نَهى النبيُّ ﷺ عنِ الغُلُوِّ، وقالَ لمنْ أرادُوا: قيامَ اللَّيْلِ أبدًا، وصومَ الدهرِ، والعزوفَ عنِ الزَّواجِ أبدًا، للتَّفَرُّغِ للعبادَةِ، قالَ لهُمْ: «مَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتى فَلَيس مِنِّى» كَمَا جاءَ فى الصَّحيحِ، وَبينَ لَهُمْ أنَّهُ مَعَ شدَّةِ خَشْيَتِه للَّه: يقومُ اللَّيْلَ وَيَنامُ، وَيَصومُ وَيُفْطِرُ، وَيتزَوَّجُ النِّساءَ، فَلِمَ الانحرافُ عنِ اتِّباعِ السُّنَّةِ الهَادِيَةِ بِقَصْدِ الغلوِّ وتحميلِ النَّفْسِ مالَمْ يَأذَنْ بِهِ اللَّهُ. (طاء)

(١) البينة: ٥

أهلُ المشقَّة على النُّفوسِ:

الصِّنفُ الأوَّلُ: عندهُمْ أنفعُ العـبادات وأفضَلُهـا أشقُّهـا على النُّفوسِ وأصعَبُها ، قالوا لأنَّهُ أبعَدُ الأشْياءِ مِنْ هَوَاها وهوَ حقيقة التَّعبدِ ، والأجْرُ على قَدر المشقَّة ، وَرَوَوا حَديثًا ليسَ لَهُ أصلٌ «أفضلُ الأعـمالِ أحمَزُها» أى أصعَبُها وأشَقُّها ، وهؤلاءِ همْ أربابُ المجاهَداتِ والجَوْرِ على النفوسِ ، قـالوا وإنَّمَا تسـتـقـيمُ النفـوسُ بذلكَ ، إذْ طبـعُهَا الكسلُ والمهـاوَنَةُ والإخلادُ إلى الراحة فلا تستقيمُ إلا بركوبِ الأهوالِ وتحمُّلِ المشاقِّ(*).

أهْلُ الزُّهد فى متاعِ الدُّنيا:

الصنفُ الثَّانى: قالوا أفضلُ العباداتِ وأنفعُها التجردُ والزهدُ فى الدنيا والتَّقَلُّلُ منها غايةَ الإمكانِ واطِّراحُ الاهتمامِ بها ، وعدمُ الاكتراثِ لما هو منها.

عَوامُّ الزُّهَّادِ وخَواصُّهم:

ثمَّ هؤلاء قسمان: فعَوامُّهُمْ ظنُّوا أنَّ هذا غايةٌ فشمَّروا إليهِ وعَمِلوا عليه وقالوا: هو أفـضلُ من درجَةِ العلْمِ والعبادَةِ وَرأوا الزهدَ فى الدنيـا غايةَ كلِّ عبادةِ ورأسَهـا ، وخواصُّهُمْ رأوْا هذا مقصودًا لغـيْرِهِ وأنَّ المقصودَ به عُكوفُ القلبِ على اللهِ تعالى والاستغراقُ فى محبَّتِهِ والإنابةُ إليه والتوكُّلُ عليهِ والاشتغالُ بمرْضاتهِ ، فرَأوْا أفضلَ العـباداتِ دوامَ ذكره بالقلبِ واللسان ثم هؤلاء قسمان ، فالعارفونَ إذا جاءَ الأمرُ والنهىُ بـادَروا إليهِ ولو فرَّقَهُمْ وأذهبَ جَمْعَهُمْ ، والمنحرفونَ منهم يقولونَ المقصودُ من القلبِ جَمْعِيَّتُهُ ، فإذا جاءَ مايُفَرِّقُهُ عن اللَّه لم يلتَفتُوا إليه ، ويقولون:

يُطالَبُ بالأوْرادِ مَنْ كانَ غافلا ... فَكيفَ بِقَلْبٍ كُلُّ أوقاتِه وِرْدُ

(*) وقـد جاء فى الحـديث الذى رواه ابن مـسعـود: «هلك المتنطعـون» وهم المتَعمِّقـون المتشدِّدون فى غير موضع التشدد (طاء)

مِنْ آفات الغُلُوِّ فى أخْذ الشَّريعَة مِنْ جِهَة واحدَة:

ثُمَّ هؤلاءِ أيضًا قِسْمان: مـنهمْ مَنْ يَتْرُكُ الواجبات والـفرائض لِجَمعيَّته: ومنهمْ مَن يقومُ بِهـا ويتركُ السُّنَنَ والنَّوافِلَ ويُعَلِّمُ العِلْمَ النافعَ لِجمـعيَّته. والحقُّ أنَّ الجمعيةَ حَظُّ القلبِ، وإجابَة داعى اللَّه حَقُّ الرَّبِّ، فَمَنْ آثَرَ حَقَّ نفسه على حَقِّ ربِّه فليس مِنَ العبادَةِ فى شَىْءٍ.

أهْلُ قَضاء حَوائِجِ النَّاسِ والنَّفع المتَعدِّى:

الصِّنْفُ الثالثُ: رَأَوْا أنَّ أفضلَ العِباداتِ مـاكانَ فيهِ نَفْعٌ مُتَعَدٌّ فَرأوْهُ أفضلَ مِنَ النفعِ القاصرِ فَرَأوْا خِدْمَةَ الفقراءِ والاشتغالَ بمصالحِ الناسِ وقَضاءَ حَوائجهِمْ ومُسـاعَدَتَهم بالجـاه والمالِ والنـفعِ أفـضلَ لقَوْله ﷺ «الخَلقُ عيـالُ اللَّه وأَحَبُّهُمْ إلى اللَّه أنْفَعُهُمْ لِعياله»[١]. قَالُوا: وَعَمَلُ العابدِ قاصرٌ على نَفْسه وعَمَلُ النَّفَّاعِ مُتَعَدٍّ إلى الغَيْرِ، فـأيْنَ أحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ؟، ولِهذا كـانَ فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكب. وقدْ قالَ ﷺ لِعَلِيٍّ «لأن يهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحدًا خيرٌ لكَ مِنْ حُمرِ النَّعمِ»[٢] وقالَ: «مَـنْ دعَـا إلـى هُدًى كـانَ لَـهُ مِـنَ الأجـرِ مثْـلُ أُجـورِ مَنْ تَبعَهُ مِنْ غيرِ أنْ يُنقصَ من أُجورِهِمْ شَيئًا»[٣]، وقال: «إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلُّون على مُعَلِّمِى الناسِ الخيرَ»[٤]، وقالَ: «إنَّ العالِمَ يستغفرُ لهُ من فى السموات

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه

(٢) رواه ابن عبد البر في كتاب «جامع بيان العلم وفضله» عن سهل بن سعد ورواه الطبرانى في المعجم الـكبير عن أبى رافع، بلفـظ «لأن يهدى الله على يديك رجلا خـير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت».

(٣) هو فى صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثلُ أجورِ من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تَبِعَه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا».

(٤) الحديثُ رواه التِّرمذِىُّ عنْ أبى أمامَةَ مُطَوَّلًا وقالَ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، ورواهُ البزارُ =

ومن فى الأرضِ حتَّى الحيتانُ فى البحـرِ والنملةُ فى جُحْرِهَا» ، قالوا ، وصاحبُ العبادَةِ إذا مـاتَ انقطعَ عـملُهُ ، وصاحبُ النَّفْعِ لاينـقطعُ عَمَلُهُ مادامَ نفـعُهُ الَّذى تسبَّبَ فيه. والأنبـياءُ عليهمُ الصـلاةُ والسلامُ إنما بُعِثُوا بالإحسانِ إلى الخلقِ وهدايتِهِمْ ونفـعِهِمْ فى مَعَـاشِهِمْ وَمَعَـادِهِم وَلَمْ يُبْعَثُوا بالخَلَوات والانقطاعِ ، ولهذا أنكرَ النبىُّ ﷺ على أولئكَ النَّفَرِ الذينَ هَمُّوا بالانقطـاعِ والتَّعَبُّدِ وتركِ مُخـالَطَةِ الـناسِ ، ورأى هؤلاء أنَّ التَّفرُّغَ لِنَفْعِ الخَلْقِ أفضلُ من الجمـعيةِ على الله(*) بِدونِ ذلكَ قـالوا وَمِنْ ذلكَ العِلْمُ والتعليمُ ونحو هذه الأمور الفاضلَة.

أفضلُ العبادة الاشتغالُ فى كل وقت بما يناسبه

أهْلُ التَّعبُّد المُطْلَقِ وَمنْهاجُهُم المتكاملُ:

الصنفُ الرابعُ : قالوا: أفضلُ العبادةِ العملُ على مَرْضاة الرَّبِّ سبحانَهُ وتَعالى واشتغالُ كُلِّ وقتٍ بما هُوَ مُقتَضى ذلكَ الـوقتِ ووظيفَتهُ ، فـأفضلُ العباداتِ فى وقتِ الجهادِ الجهادُ وإنْ آلَ إلـىتَرْكِ الأورادِ من صلاةِ الليلِ وصيامِ النهارِ ، بلْ من تركِ إتمامِ صلاة الفرضِ كما فى حالة الأمنِ(**) والأفضلُ فى وقتِ حضورِ الضيفِ القيـامُ بحقِّهِ والاشتغالُ بهِ. والأفضلُ

= منْ حديث عائشةَ مختصرًا، قالَ: «مُعلِّمُ الخيرِ يستغفرُ لهُ كُلُّ شيءٍ حتىَّ الحيتانُ في البـحرِ»، وقد وردَ في مَدْحِ العلْمِ والعُلَمـاءِ أحاديثُ كـثيـرةٌ تبلغُ حَدَّ التَّواتُرِ، والمُرادُ بالعلمِ، العلْمُ النَّافِعُ الَّذى تظهرُ آثارُهُ بالمُتَّصفِ بهِ عـملاً ، وليسَ المُرادُ به عِلْمُ أكثرِ أهلِ الزمانِ المجرَّدِ عَنِ العملِ به والإخلاصِ.

(*) وهذان طرفانِ فى مساقِ الأخذِ بوجـه وزاويةٍ واحدة دونَ تحقيقِ مطلوباتِ الشَّرعِ وأوامرِهِ منْ كُلِّ ناحيَةٍ. وأنْ يكونَ كـلُّ شيءٍ فى حِينِه ووقْتِهِ، وعلى حَسَبِ الأحوالِ والمقاماتِ على مُقْتَضَى الاقْتداء (طاء).

(**) ففى حالة الأمنِ وَالإقامة يُصَلَّى الظهرُ والعصـرُ والعشاءُ أربع ركعاتٍ، أما فى حالةِ السَّفرِ أو الخوفِ (الحربِ) فَتُقصرُ كُلُّ صلاةٍ منها، وَتُصلَّى ركعتين(طاء)

فى وقتِ السحرِ الاشتغالُ بالصلاةِ والقرآنِ والذكرِ والدعاء ، والأفضلُ فى وقت الأذانِ تركُ ماهوَ فيهِ منَ الأورادِ والاشتغالُ بإجابةِ المؤذِّنِ. والأفضلُ فى أوقاتِ الصلواتِ الخمسِ الجدُّ والاجتـهادُ فى إيقاعها على أكـملِ الوجوهِ والمبادرةُ إليها فى أولِ الوقتِ والخـروجُ إلى المسجدِ وإن بَعُدَ. والأفـضلُ فى أوقات ضرورة المحتاجِ المبادرةُ إلى مساعدته بالجاه والمالِ والبَدَنِ. والأفضلُ فى السفرِ مساعدةُ المحـتـاجِ وإعـانةُ الرُّفْقَةِ وإيثـارُ ذلكَ على الأوراد والخَلوة. والأفضلُ فى وقتِ قراءَةِ القرآنِ جـمعيَّةُ القلبِ والهِمَّةِ على تدبُّرِهِ والعزمُ على تنفيذِ أوامرِهِ أعظم من جمعيَّةِ قلبِ من جاءَه كتابٌ من السلطانِ على ذلك. والأفضلُ فى وقتِ الوقوفِ بعرفةَ الاجتهادُ فى التضرعِ والدعاء والذكر. والأفضلُ فى أيـامِ عشرِ ذى الحـجَّةِ الإكثارُ من الـتعبُّدِ لاسـيَّما التكبـيرُ والتهليلُ والتحميدُ وهو أفضلُ منَ الجهادِ الغيرِ المُتَعَيِّنِ. والأفضلُ فى العَشَرَةِ الأَواخِرِ منْ رمضانَ لزومُ المساجدِ والخلوةُ فـيها معَ الاعتكافِ والإعراضِ عن مخالطَةِ الناسِ والاشتغالِ بهمْ حتى أنه أفضلُ من الإقبالِ على تعليمِهِمْ العِلْمَ وإقرائهم القـرآنَ عند كثيرٍ من العُلَماءِ. والأفـضلُ فى وقتِ مرضِ أخيكَ المسلمِ أو موتِهِ عيادتُهُ وحضـورُ جنازَتِه وتشييعُهُ وتقديمُ ذلكَ على خَلوتكَ وجمعـيتكَ. والأفضلُ فى وقتِ نزولِ النوازلِ وإيذاء الناسِ لكَ أداءُ واجبِ الصبرِ مع خُلطتكَ لهم ، والمؤمنُ الذى يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهُمْ أو إيذائهمْ أفـضلُ من المؤمنِ الذى لايُخالطُ النـاسَ ولا يَصبِرُ على أذاهُم. وخلطتُهُم فى الخـير أفضـلُ منْ عُزلتهِمْ فيـه ، وعُزلتُهم فى الشرِّ أفضلُ من خُلطتـهِم فيه. فإن علِمَ أنهُ إذا خَالَطَهُم أزالَهُ [1] وقلّلَهُ ، فَخُلطتُهُمْ خيرٌ من اعتزالِهِمْ ، وهؤُلاءِ هم أهلُ التـعبُّدِ المُطلَقِ ، والأصنافُ

---

(١) قوله أزالهُ وقلّلَهُ يعنى الشرَّ المتقدِّم ذكرُهُ قَبْلُ.

التى قبلهم أهلُ التعبُّد المُقَيَّد ، فمتى خَرجَ أحَدُهمْ عن الفرْعِ الذى تعلّقَ به من العبـادةِ وفارَقَهُ يرى نفسَهُ كـأنهُ قدْ نَقصَ ونزلَ عنْ عبادته فهوَ يعبدُ اللّهَ تعالى عَلى وَجْهٍ واحد وصاحبُ التعَبـد المطلق ليسَ لهُ غَرَضٌ فى تَعَبُّد بعَيْنه يُؤْثِرُهُ على غيرِه بلْ غرضُهُ تَتَبُّعُ مَرْضاة الله تعـالى: إن رأيتَ العلماءَ رأيتَهُ معهم وكذلكَ فى الذاكرينَ ، والمتصدِّقينَ وأربابِ الجمعيةِ وعكوفِ القلبِ على اللهِ ، فهذا هو الغذاءُ الجـامعُ للسائرِ إلى اللّهِ فى كل طريقٍ والوافدِ عليهِ معَ كلِّ فريق.

مثالٌ ودليلٌ على سلامةِ وصحة منهج أهْل التَّعبُّد المُطْلَق:

وأستَحـضِرُ هـهُنا حـديثَ أبـى بكـرٍ الصِّدِّيـقَ رضـىَ الـلّهُ عنهُ وقولَ النبىِّ ﷺ بحضـوره «هـلْ منكُـم أحـدٌ أطعـمَ اليومَ مِسكينًا؟ ، قــالَ أبو بكرٍ: أنا قـالَ: هـلْ منكمْ أحـدٌ أصـبحَ اليـومَ صـائـمًا؟ ، قـالَ أبو بكرٍ: أنا ، قالَ: هـل منكـم أحـدٌ عـادَ اليومَ مـريضـاً؟ ، قـالَ أبـو بكـرٍ: أنا ، قالَ: هل منكُم أحـدٌ اتَّبعَ اليـومَ جنازةً؟ قـال أبو بكرٍ: أنا»[1] الحديث: هذا الحديثُ رُوِىَ من طريقِ عـبدِ الغنىِّ بنِ أبى عَقيل. حـدَّثنا نُعَيْمُ بنُ سالِم عنْ أنَس بنِ مالكٍ رضى الله عـنه قال«كان رسـولُ اللّهِ ﷺ جالسًا فى جماعةٍ منْ أصْحابِه فقـالَ: من صامَ اليومَ؟ قالَ أبو بكرٍ: أنا ، قال: من تصَدَّقَ اليَوْمَ؟ قالَ أبو بكرٍ: أنا ، قـالَ: من عادَ اليومَ مـريضًا؟ قالَ أبو

(١) الحديث أخـرجَهُ ابنُ خُزَيْمَةَ في صحيـحه وأوْرَدَهُ الحافظُ عـبدُ العظيمِ المنذرىُّ فى كتابه «التَّرْغـيبُ والتَّرْهيبُ»، وسكَتَ عنهُ، ولَفْظُهُ: «عن أبى هريرةَ قـالَ رسـولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْه وآله وَسَلَّمَ: مَنْ أصْبَحَ مِنْكمُ اليومَ صائما؟ فقالَ أبو بكرٍ رضىَ اللّهُ عَنْهُ: أنا، فقالَ: مَنْ أطْعَمَ مِنْكُمُ اليَوْمَ مِسْكينا؟ فـقال أبو بكر: أنا، فـقالَ: مَنِ تَبعَ منكُمُ اليـومَ جنازَةً؟ فقال أبو بكـر: أنا، فقال: من عادَ منكم اليـومَ مَريضا؟ فقال أبو بكر: أنا، فـقالَ رسول اللّه صلّى اللّهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ: مااجتمَعَتْ هذه الخِصالُ قَط في رجُلٍ إلّا دَخَلَ الجَنَّةَ».

بكرٍ: أنا ، قــالَ: من شَهِدَ اليومَ جَنازةً؟ قال أبو بكــرٍ: أنا ، قالَ: وَجَبَتْ لَكَ» يَعنى: الجَنَّةَ. ونُعَيْمُ بنُ سالمٍ وإن تُكُلِّمَ فيه لكن تَابَعَهُ سَلَمةُ بنُ وردان ولهُ أصلٌ صَحيحٌ مِنْ حديث مــالك عَنْ مُحَمَّد بنِ شهاب عنْ حُمَيْد ابنِ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ عــنْ أبى هُرَيرَةَ رضى الله عــنهُ «أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: منْ أنْفقَ زوجينِ فى سبيلِ اللَّه نُودىَ فى الجنةِ ياعبدَ اللَّه هذا خَيْرٌ ، فمنْ كانَ مِنْ أهْلِ الصَّلاةِ نُودىَ مِنْ بابِ الصَّلاة ، ومَنْ كانَ من أهل الجهاد نودىَ من بابِ الجِهادِ ، ومنْ كانَ مِنْ أهْلِ الصَّدَقَة دُعِىَ مِنْ بابِ الصَّدَقَة ومن كانَ مِنْ أهلِ الصِّيامِ دُعِىَ مِنْ بابِ الرَّيَّانِ ، فقال أبو بكرٍ رضىَ اللَّهُ عنهُ: يارسول الله ما على من يُدْعَى مِنْ هَذه الأبواب كُلِّهَا مِنْ ضَرُورة فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأبْوابِ كُلِّهــا؟ قالَ: نَعمْ وأرْجُو أن تكــونَ مِنْهُمْ»[١] هكَذا رَواهُ عَنْ مالكٍ مَوصولاً مُسنداً عَنْ يَحيَى بنِ يَحيَى ومَعْن ابنِ عيسى وَعَبْد اللَّه بنِ المُبَارَك ، وَرَواهُ يَحيَى بنُ بكيرٍ وَعَبْدُ اللَّه بنُ يوسُفَ عَنْ مَالك عَنْ ابنِ شِهابٍ عَنْ حُمَيْدٍ مرْسَلا. ولَيْس هُوَ عِنْدَ الــقَعنبى لا مُرسَلا وَلا مسنداً.

تَفْسيرٌ لكَلمَة:

ومَعْنَى قَوْلهُ «مَنْ أنْفَقَ زَوجَينِ» يَعنى شَيــئينِ مِنْ نَوعٍ واحد نَحْوِ درْهَمــينِ أوْ دينارَيْنِ أوْ فَرَسينِ أوْ قَميصَينِ ، وكَذلكَ مَنْ صَلَّى رَكْعَتَينِ أوْ مَشى فى سَبيلِ اللَّه تَعالى خطوتَينِ أوْ صَامَ يَوْمَينِ ونَحوَ ذلكَ ، وإنَّمَا أرادَ ـ واللَّهُ أعْلَمُ ـ أقَلَّ التّكْرارِ وأقَلَّ وُجوهِ المُداوَمَة على العملِ مِنْ أعْمالِ البرِّ ، لأنَّ الاثْنَينِ أقَلُّ الجَمْعِ.

---

(١) خَرَّجَهُ البُخَارِىُّ فى صَحيحِهِ فى غيرِ مَوْضِعٍ ، ومُسْلِم والنَّسائىُّ والتِّرْمِــذِى

ثَنَاءٌ عَلَى مَنْ يُعْطِى كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ:

فَهذا[1] كَالْغَيْث ، أَينَ وَقعَ نَفعَ ، صَحِبَ اللهَ بِلاَ خَلْقٍ ، وَصَحِبَ الخَلْقَ بِلاَ نَفْسٍ ، إذاَ كَانَ مَعَ اللَّه عَزَلَ الخَلاَئِقَ مِنَ البيْنِ ، وتَخَلَّى عَنْهُمْ وإذَا كَانَ مَعَ خَلْقه عَزَلَ نَفْسَهُ مِنَ الوَسَطِ وَتَخَلَّى عَنْهَا ، فَمَا أغْرَبَهُ بينَ النَّاسِ ، وَمَا أشَدَّ وَحْشَتَهُ مِنْهُمْ ، وَمَا أعْظَمَ أُنْسَهُ بِاللهِ وَفَرَحَهُ بِهِ ، وَطُمَأنينَتَهُ وَسُكُونَهُ إلَيْهِ.

للناس فى منفعة العبادة طرقٌ أربع

المَذَاهِبُ فى بيان حِكْمَةِ العِبَادَة وَعِلَّتِهَا:

وَاعْلَمْ أنَّ لِلنَّاسِ فِى مَنفَعةِ العِبادَةِ وَحِكْمَتِهَا ومقصودها طُرُقًا أربَعةً وهم فى تلكَ أربعةُ أصناف: الصِّنْفُ الأوَّلُ ، نُفَاةُ الحِكَمِ والتَّعليلِ الَّذين يَرُدُّونَ الأمْرَ إلى نَفْسِ المَشيئةِ وَصِرف الإرادَة ، فَهؤُلاءِ عندَهُمُ القِيامُ بِها ليسَ إلّا لِمُجَرَّدِ الأمْرِ من غيرِ أنْ تكونَ سَبَبًا لِسَعادَةٍ فِى مَعاشٍ وَلا مَعادٍ ولا سَبَبًا لِنَجاة وإنَّمَا القيامُ بِها لمجَرَّدِ الأمْرِ وَمَحْض المَشيئَة ، كَما قالوُا فِى الخَلْقِ لَمْ يُخْلَقْ لِغايَةٍ ولا لِعلَّةٍ هِىَ المَقصُودَةُ بِهِ ، ولا لحِكمَةٍ تعودُ إليهِ منهُ ، وليسَ فى المَخلوقِ أسبابٌ تكونُ مُقْتَضياتٍ لِمُسبَّباتِها ، وليسَ فى النَّارِ سَبَبٌ للإحْراقِ ، وَلا فى الماءِ قُوَّةُ الإغْراقِ ولا التَّبريدِ ، وهكَذا الأمْرُ عِندَهُمْ سواء ، لافَرقَ بينَ الخَلقِ والأمْرِ ، لافرقَ فى نَفسِ الأمرِ بين المأمُورِ والمحْظورِ ، ولكنَّ المشيئةَ اقتضَتْ أمْرَهُ بهذا وَنَهْيَهُ عَنْ هذا مِنْ غيرِ أنْ يَقومَ بالمأمورِ بِهِ صِفَةٌ تَقتَضِى حُسْنَهُ ، وَلا بِالمَنْهِىِّ عَنْهُ صِفَةٌ تَقْتَضِى قُبْحَهُ.

---

(1) اسْمُ الإشَارَةِ راجِعٌ إلى الصِّنْفِ الرَّابِعِ العَامِلِ فى كُلِّ وَقتٍ بِالأفضَلِ فى ذلِكَ الوَقْتِ.

ذَمُّ هذا المَذهب «وهم الجبرية»:

وَلِهذا الأصلِ لوازمُ فاسدَةٌ وفُروعٌ كَثيرَةٌ ، وَهؤُلاء غالبهُمْ لايَجدونَ حَلاوَةَ العبادة ولا لذَّتها وَلَا يتَنَعَّمونَ بها ، ولِهَذا يُسَمُّونَ الصَّلاةَ والصِّيامَ والزَّكاةَ والحَجَّ والتَّوْحيدَ والإخْلاصَ ونَحوَ ذلكَ تكاليفَ ، أى كُلِّفُوا بها ولَوْ سَمَّى مُدَّعِى مَحَبَّة مَلك من المُلوك أوْ غيره مايأمُرُهُ به تكْليفًا لَمْ يَعُدْ مُحِبا لَهُ ، وأوَّلُ من صَدَرَتْ عنهُ هَذِه المَقالَةُ «الجَعْدُ بنُ دِرْهَمْ[*]».

أول بدعة ظهرت في الإسلام ومذهب القدرية والمعتزلة

الصِّنفُ الثَّانِى: القَدَرِيَّةُ[1] . النُّفَاةُ الَّذينَ يُثْبتونَ نَوْعًا مِنَ الحِكْمَةِ والتَّعليلِ

(*) سبقَتِ الإشارَةُ إلى أنَّ «الجَعْدَ بنَ دِرهَم» ، كانَ أوَّلَ مَنْ حُفظَ عَنْهُ القَولُ بتَعْطيلِ الصِفَات والأسماء فى الإسلامِ ،وأخذَهَا عنهُ «الجَهْمُ بنُ صَفْوان» وأظهَرَها ، فَصَارَت هُنَاكَ فِرقَةٌ ضالَّةٌ تُسمَّىٰ «الجهميَّة» نسبة إليه. (طاء)

(١) اعلَم: أنَّ أولَ بدعة ظهرتْ فى الإسلام بدعةُ القدَر وبدعةُ الإرْجاء وبدعة التَّشيُّع والخوارجِ. وأوَّلُ منْ تكلمَ في القدَر «معْبدُ الجُهَنىُّ»، وهَذه البِدَعُ ظهرتْ فى القرن الثَّانى والصحابَةُ موجودونَ. وقدْ أنكَروا علَى أهلِهَا، ثمَّ ظهرَت بدْعَةُ الاعتزال ولَمْ يزل المسلمونَ على النَّهجِ الأول ولزومِ ظاهرِ السنة وما كان عليه الصَحابَةُ رضيَ اللهُ عنهم إلى أن حدثت الفتنُ بينَ المسلمينَ والبَغْي علي أئمَّة الدِّينِ وظَهَرَ اختلاف الآراء والميلُ إلى البدَعِ والأهْواء وكثُرَت المسائلُ والواقعاتُ والرجوعُ إلى العلماء فى المهماتَ، فاشتغلوا بالنَظرِ والإستدلالِ والاستنباطَ والنتائجِ وتمهيد القواعد، وإنتاجِ القضايا والفوائد، وأخَذوا فى التَّبويبِ والتَّفصيلِ والترتيب والتأصيلِ، فأسَّسَتْ فرقَةُ المُعتزلة قواعدَ الخلاف، ونهجَتْ منهجَ الفُرْقَة والانحراف، وكانَ أولَ[*] من اعتزلَ عنْ مجلسِ سيِّد التابعينَ الحَسَنِ البصريِّ «واصلُ بنُ عطاء» رئيسُ الطائفة المعتزلة. ومَذْهَبُ السَلفِ هوَ المذهبُ المنصورُ والحقُّ الثابتَ المأثورُ، وأهلُهُ هم الفرْقَةُ النَاجيَةُ والطائفَةُ المرحومَةُ التى هيَ بكلِّ خير فائزةٌ ولكلِّ مكرُمَة راجيَةٌ: من الشفاعَةِ والورود على الحوضِ ورؤية الحقِّ وغيرِ ذلك. فمذهبُ السلَف حقٌّ بين باطلين، وَهدًى بينَ ضَلالَين. قال العلاَّمَةُ ابنُ تَيْميَة: مذهبُ السَّلَف أنهم يصَفونَ اللهَ تعالَى بمَا وَصفَ به نَفْسَهُ وبماَ وَصَفَهُ به رسولُهُ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومنَ غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، فالمعَطِّلُ يعبدُ عَدَمًا، وَالَممثِّلُ يعبدُ صنَمًا، والمسلمُ يعبد ربَّ الأرض والسما.

(*) كان أولَ . . : أولَ خبر كان مقدم منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره وواصلُ اسمها مؤخر مرفوع

لايقومُ بالـرَّبِّ ولا يَرْجِعُ إلَيهِ.. بَل يَرْجِعُ لِمَحْضِ مَصـلحَة المَخْلـوقِ ومنْفَعَته، فَعندَهُمْ أنَّ العِبـادات شُرِعَتْ أثْمانًا لِمَا ينالُهُ العِبـادُ من الثواب والنعيمِ، وأنَّها بمنزلة استيفاء الأجيـر أجرَه، قالوا، ولهذا يجعلها سُبحانَهُ وتعـالى عِوَضًا كقـوله ﴿وَنُودُوا أن تلْكُمُ الجَنَّةُ أورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنُتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلا مَاكُنتُمْ تَعْمَلـونَ﴾[2] ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنُتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] ﴿إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابرُونَ أجْرَهُم بغَيْر حسَاب﴾[4] وَفى الصَّحيحِ: «إنما هى أعمالُكُمْ أحْصيهَا عليكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا»، قالُوا: وقَدْ سَمَّاهَا جزاءً وأجْرًا وَثوابًا لأنَّهُ شيءٌ يَثوبُ إلى العاملِ مِنْ عَمَلِه، أىْ يَرْجِعُ إليه. قالُوا: وَيَدُلُّ عليه الموازَنَةُ، فَلوْلا تَعلّقُ الثواب بالأعمال عِوَضًا عَليها لَمْ يكُنْ لِلْمُوازَنَة مَعْنى، وهاتان الطائفتان مُتقـابلَتان.. فالجَبْرِيَّةُ لم تجعَلْ للأعمالِ ارتباطًا بالجَزاء ألْبَتَّةَ ، وَجَوزَّتْ أنْ يُعَذِّبَ اللهُ مَنْ أفْنَى عُمْرَهُ فى الطَّاعَةَ وَيُنَعِّمَ من أفـنى عُمرهُ فى مُخالَفَته، وكلاهُمَا سَواءٌ بالنسـبة إلَيْه، والكُلّ راجِعٌ إلى مَحْضِ المشيئَة. والقدريةُ أوجبـتْ عليه سُبحانهُ وتَعالى رِعايةَ المصالحِ وجَعَلَتْ ذلكَ كُلَّهُ بمحضِ الأعمالِ وأنَّ وُصولَ الثوابِ إلى العَبد بدونِ عمله فيه تنقيصٌ باحتمالِ منَّة الصدقَة عليه بِلا ثَمنٍ ، فجعَلوا تَفَضُّلَهُ سُبحَانَهُ وَتَعالى على عبده بمنزلَة صَدَقَةِ العَبْدِ على العبدِ وإعطائه مايُعطيــه أجرةً على عَمَلِه أحَبَّ إلى العبدِ من أن يُعطيــه فَضلاً منهُ بِلاَ عَملٍ، ولمْ يجعلوا للأعمالِ تأثيرًا فى الجَزاءِ ألْبَتَّةَ، والطائفتانِ

---

(١) الأعراف: ٤٣

(٢) النمل: ٩٠

(٣) النحل: ٣٢

(٤) الزمر: ١٠

مُنْحَرِفَتَانِ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ(*) وهوَ أنَّ الأعمالَ أسبابٌ موصلة إلى الثوابِ والأعمالَ الصالحات من توفيقِ اللهِ وفضله، وليسَتْ قَدْرًا لجزائه وثوابه بَلْ غايَتُهَا إذا وَقَعَتْ على أكملِ الوجوه أنْ تكونَ شُكرًا على أحَدِ الأجزاء القليلة مِنْ نِعَمه سُبحانَهُ وتَعالى، فَلَوْ عَذَّبَ أهلَ سَمواته وأهْلَ أرْضِه لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، ولو رَحمَهُمْ لكانَتْ رَحمَتُهُ لَهُمْ خيرًا مِن أعمالِهِمْ. وتَأمَّلْ قَوْلَهُ تعالى﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتى أورِثْتُمُوهَا بمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] مَعَ قوله ﷺ «لَنْ يَدْخُلَ أحَدٌ مِنكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِه»[2] تجد الآيَةَ تدلُّ على أنَّ الجنانَ بالأعمال، والحديثَ يَنفى دُخولَ الجَنَّة بالأعْمال، ولا تَنَافى بينهُمَا، لأنَّ تَوارُدَ النَّفى والإثْباتِ ليس علىَ مَحلٍّ واحد، فالمَنْفىُّ باءُ الثَّمَنيَّة واستحقاق الجنَّة بِمُجَرَّدِ الأعْمال رَدا علَى القَدَرِيَّةِ المجوسِيَّةِ التى زَعمتْ أنَّ التَّفَضلَ بالثَّواب ابتِداءً مُتَضَمِّنٌ لِتكديرِ الـمِنَّة.

(*) جاءَ في الصِّحَاحِ فى مادَّة (ج ب ر): الجبرُ خلافُ القَدَرِ، قالَ أبو عُبيدَةَ: هو كلامٌ مُوَلَّدٌ، والجَبْرِيَّةُ ـ بِسكون الباء وَفَتحهَا ـ خلاف القدرية، وقد بيَّنَ المقريزىُّ جُذورَ الخلاف الفكرىِّ بينَ هاتينِ الطائفتينِ المتقابلَتينِ المنحرفَتينِ عنَ جادَّة وَسَطيَّة الإسلام. ثم شرعَ المقَريزى فى بيان الصراط المستقيم في هذه المسألة بدءا من قوله: «وهو ـ أى الصراط المستقيم أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب وما بعده» (طاء)

(١) الزخرف: ٧٢.

(٢) الحديث فى الصحيحين: ولفظ البخارى عن أبى هريرة «قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يدخل أحدا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يارسول الله، قال: ولا أنا إلا يتغمَّدنى الله بفضلٍ ورحمة، فَسَدِّدوا، وقَاربُوا، ولا يَتمنينَّ أحُدكم الموتَ إمَّا محسنًا، فلعله أن يزدادَ خيرًا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب» فمذهب أهلِ السنة أنه لايَثْبُتُ بالعقل ثوابٌ، ولا عقاب، بل ثُبوتُهما بالشريعة حتى لو عذَّب الله تعالى جميع المؤمنين، كان عدلا منه، ولكنه أخبر بأنه لايفعل، بل يغفر للمؤمنين، ويعذب الكافرين، وقد روى أبو داود، وابن ماجة من حديث أبى بن كعب في ذكر القدرَ (وفيه) «لو أنَّ الله عذب أهل سمواته وأرضه لعذَّبهم، وهو غيرُ ظالم لهم، ولو رَحمِهم كانت رحمُته خيرًا لهم» الحديث. والله أعلم.

والباء المثبتة التى وردت فى القرآن هى باء السببية(*) ردًّا على القدرية الجبرية الذين يقولون لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هى أسباب لها وإنما غايتها أن تكون أمارة.

والسُّنَّةُ النبويَّةُ هى أنَّ عُمومَ مشيئةِ الله وقُدرته لاتُنافى رَبطَ الأسبابِ بالمُسبَّبات وارتباطَها بها، وكُلُّ طائفَةٍ منْ أهْلِ الباطِلِ تَركَتْ نَوْعًا من الحقِّ، فإنَّهَا ارتَكَبَتْ لأَجْلِه نَوْعًا منَ الباطِلِ، بَلْ أنواعًا، فَهَدى اللهُ أهلَ السُّنَّة لِمَا اخْتَلفُوا فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنه.

أربابُ رياضة النفوسِ وطرائقُهم:

الصِّنفُ الثالثُ: الَّذينَ زعموا أنَّ فائدةَ العبادَة رياضةُ النُّفوسِ واستعدادُها لفيضِ العُلوم والمَعارِف عليها وخروجُ قُواها من قُوى النفسِ السَّبعِيَّة والبهيميَّة، فلوْ عُطِّلَت العبادةُ لالتحَقَتْ بنفوسِ السِّباعِ والبهائمِ، فالعِبادةُ تُخرجُها إلى مُشابهَةِ العُقولِ فتصيرُ قابلةً لانتقاشِ صورِ المَعارِفِ فيها. وهذا يقولُهُ طائفتان، إحداهما (**) من الفلاسفةِ القائلينَ بقِدَمِ العالَمِ وعدمِ الفاعلِ المُختار. والطائفةُ الثانيَةُ مَن تفلْسَفَ مِنْ صوفيَّةِ الإسلامِ ويقربُ إلى الفلاسِفَةِ، فإنَّهُم يزعُمونَ أنَّ العباداتِ رياضاتٌ لاستعدادِ

(*) أى نحو ماجاء فى آية الأعراف: ﴿أورثْتُموها بما كنتم تعملون﴾، أي: بسبب أعمالكُم الصالحة نالتكُمْ رحمةُ الله فدخلتم الجَنةَ وتبوَّأْتُمْ منازلكُمْ بحسَبِ أعمالكُم، وفى النحل: ﴿ادخلوا الجنَّة بما كنتُم تعملون﴾، فتلكَ باءُ السببِيَّة كما نقول: فرحنَا بالمولود، أى بسبب ولادته، وليست من قَبيل «اشتريتُ هذه السِّلْعَةَ بعَشْرَةِ دَراهِمَ»، فالباءُ هنا للثَّمنيَّة واستحقاق تملك السلعَة بالمبلَغ، فليست الأعمالُ الصالحةُ مساويةً فى القيمة والمقدارِ للثوابَ (الجنة) بحيثُ تصيرُ أثمانًا له، وإنما هى أسبابٌ، أمَّا الثوابُ فبفضلِ الله ورحمته وإنَّ المؤمنَ يَعْظُمُ رجاؤُهُ فى قبولِ الله أعمالَهُ الصالحةَ وأنْ يعفوَ بفضله عن التقصيرِ ولا يقعُ منَ المؤمنِ عملٌ صالحٌ إلاَّ بتوفيقِ الله وإحسانه، فنحنُ نتوبُ ونُقْبِلُ على الخيرِ، ونَنْأى عن الشَّرِّ، ونُحسِنُ الظَّنَّ بالله، ونطمعُ فى رحْمَتِه وعَفْوِه (طاء).

(**) فى الأصل عبارة غير مشروح المقصود منها فحذفت من غير إخلال بالمقصود

النُّفوسِ للمعارفِ العَقليَّة ومخالَفة العوائد. ثمَّ من هؤلاء مَنْ لايُوجِبُ العبادَةَ إلاَّ بِهذا المعْنى، فإذا حَصَلَ لها ذلكَ بَقِيَ مُتَحَيرًا فى حفْظ أوراده والاشْتغال بالوارِدِ عَنهـا، وَمِنهُم مَنْ يوجِبُ القيـامَ بالأوْرادِ وعدم الإخْلالِ بهـا، وهُمْ صِنفـانِ أيضا: أحَدُهمـا من يقـولُ بوجوبـها حفْظًا للقـانون وَضَبْطًا للنامـوسِ، والآخَرونَ يوجِبـونها حِفْظًا لـلوارِدِ وَخَوْفًا من تدرُّجِ النفسِ بمفارَقتها إلى حالِها الأولى من البـهيمية، فهذه نهايَةُ إقْدامهم فى حكْمَةِ العبادَةِ وما شُرِعَتْ لأجلِه، ولا تكادُ تجِدُ فى كُتُبِ المتكَلِّمينَ على طريقِ السُّلوكِ غيرَ طَريقٍ من هذهِ الطُّرُقِ الثلاثةِ أو مَجْموعِهَا.

الطريقُ الصَّحيحُ عقيدةً وَعملًا:

والصِّنْفُ الرابعُ: هم القائلونَ بالجمعِ بينَ الخَلْقِ والأمْرِ والقَدَرِ والسَّبَبِ، فعندَهُم أنَّ سرَّ العبادَةِ وغايَتَها مَبنِيٌّ على معـرفَةِ حقيقةِ الإلهيَّةِ ومعنى كونهِ سُبحانَهُ وتعالى إلهًا وأنَّ العبـادَةَ مـوجِبُ الإلهـيَّةِ وأثَرُها ومُقْتَضاها(*) وارتباطها كارتبـاطِ متَعَلِّقِ الصِّفـاتِ بالصفات، وكـارتباطِ المعلومِ بالعـلمِ والمقدورِ بالقُدْرَةِ، والأصوات بالسَّمعِ والإحسان بالرَّحمَةِ والإعطاء بالجود، فَعِندَهُمْ من قامَ بمعرفـتِهاَ على النَّحو(**) الذى فسَّرْنـاها به لُغَةً وشرعًا مـصدرًا وموردًا استقامَ لهُ معرفـةُ حِكْمَةِ العبادات وغايَتِها، وَعَلِمَ أنها هىَ الغايَةُ التى خُلِقَتْ لها العبـادُ، ولَها أُرسِلَتْ الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ الكتبُ، وخُلِقَت

(*) «ومعنى كونه»، مَعطوفٌ على «معرفة حقـيقة» مجرور، أى: وعلى مَعنى كونه سُبحانهُ وتعالى إلهًا، فمـن عرفَ معنى الألوهيَة وحَّدَ رَبَّهُ، وخصَّهُ وحـدَهُ بالعبادَة شُكْرًا لهُ على ماأنعمَ وإقرارًا بذُلِّ العُبـوديَّة لِمَنْ لهُ كمالُ القُدْرَة وكـمالُ الرَّحمَة واعـترافًا بأنَّه لمْ يَخْلُق الإنسانَ عَبـثًا ولَمْ يتركْهُ سُدًى، بلْ خلقَهُ وأنعمَ عليـه، وأرسلَ الرُّسُلَ، وأنزلَ الكُتُبَ لِيَعْبُدَهُ ويلتزِمَ مُقْتَضى أمرِهِ ونَهْيِه خضوعًا وانقيادًا ليكونَ أهلا لرحمةِ الله عزَّ وجَلَّ.
(طاء)

(**) فى الأصل: على نحووفى الأصل «وغايتها به»

الجنَّةُ والنارُ. وقد صرَّحَ سبحانهُ وتعالى بذلكَ فى قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعْبُدُون﴾[1]، فالعبادَةُ هِىَ الَّتى مَاوُجِدَتْ الخَلائقُ كُلُّهَا إلَّا لأجْلِها ، كَمَا قالَ تَعالَى ﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى﴾[2] أىْ مُهْمَلا. قالَ الشَّافعىُّ رَحِمَهُ اللهُ، لايُؤْمَرُ ولا يُنْهَى، وقالَ غيرُهُ لايُثَابُ ولا يُعاقَبُ ، وَهُمَا تَفْسيران صَحيحان، فإنَّ الثَّوابَ والعقابَ مُتَرَتِّبٌ على الأمْرِ والنَّهيِ، والأمْرُ والنَّهْىُ هُوَ طَلَبُ العبادَة وَإرادَتها. وحَقيقَةُ العبادَة امْتثَالُهَا. ولهذا قالَ تَعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْق السَّمَوات والأرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذا بَاطِلا﴾[3] ، وقالَ تَعالى ﴿وَمَاخَلَقْنَا السَّمَواتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بالحَقِّ﴾[4] ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرْضَ بالحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بمَا كَسَبَتْ﴾[5]. فأخبرَ اللهُ تَعالى أنَّهُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ بالحقِّ المتضمِّنِ أمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَثَوابَهُ وعِقَابَهُ ، فإذا كانت السمواتُ والأرضُ إنما خُلِقَتْ لِهَذا وَهُوَ غايةُ الخَلْقِ، فكيفَ يُقالُ إنَّهُ لاغايَةَ لَهُ وَلا حِكْمَةَ مَقصُودَةٌ ،أوْ إنَّ ذلكَ لمُجَرَّد اسْتئْجارِ(*) العُمَّال حَتَّى لايَتَكَدَّرَ عَليهِمُ الثَّوابُ بالمنَّة، أوْ لمُجَرَّد اسْتِعْدادِ النفُوسِ للمَعارِفِ العَقْلِيَّة وارتياضِها لمخالَفَةِ العَوائِدِ.

خُلقنا لعبادَة الله:

وإذَا تأمَّلَ اللَّبيبُ الفرقَ بينَ هذهِ الأقوالِ(**) وبينَ مادلَّ عليهِ صريحُ

---

(١) الذاريات: ٥٦ — (٢) القيامة: ٣٦ — (٣) آل عمران: ١٩١

(٤) الحجـر: ٨٥ — (٥) الجاثية: ٢٢

(*) فى الأصل «بمجرد استئجار» بالباء

(**) اسم الإشارة(هذه) راجع إلى أقوال الأقسام الثلاثة بالمقارنة مع القسم الرابع، وأن القول الحق فى معنى العبادة وتطبيقها هو ماعليه أهل السنة والجماعة المتبعين لرسول الله ﷺ، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلوّ ولا تعطيل، لإيمانهم بأن الإنسان ماخلق إلا لعبادة الله على مقتضى أمره ونهيه، تلك العبادة الجامعة لكمال محبته سبحانه وتعالى المقتضية لمحبة من أحبه الله كرسله وأنبيائه وملائكته الكرام (طاء).

الوحيِ علِمَ أنَّ اللهَ تعالى إنما خلقَ الخلقَ لعبادته الجامعَة لكمال محبَّته معَ الخُضوعِ لهُ والانقيـاد لأمْرِه، فأصلُ العبـادَة محبَّةُ الله، بـلْ إفْرادُهُ تعالى بالمحبَّة، فلاَ يُحَبُّ معهُ سواهُ، وإنَّما يُحَبُّ مايُحبُّهُ لأَجْلِه وفيه، كما يُحبُّ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ ومـلائكتَهُ لأَنَّ محبَّتَهُمْ من تمَامِ مَحَبتِّه، وليستْ كـمحبَّة من اتَّخذَ مِنْ دونِه أنْداداً يُحِبُّهُمْ كَحُبِّه وإذا كانتِ المحَبَّةُ لهُ هيَ حقـيقةَ عُبوديَّته وسرَّها، فـهيَ إنما تتحـقَّقُ باتِّباعِ أمْرِهِ واجـتنابِ نَهْيِهِ، فعندَ اتِّبـاعِ الأمر والنَّهي تتبيَّن حقـيقة العبُوديةِ والمحبَّةِ، ولهذا جعل سبـحانه وتعالى اتِّباعَ رسولِهِ ﷺ علَمًا عليها وشاهدًا لها كما قال تعالى ﴿قُلْ إن كُنتمْ تُحبُّون الله فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1] ، فجعلَ اتِّباعَ رسـولِهِ مشروطًا بمحبَّتِهمْ لله تعالى وشرطًا لمَحَبَّةِ الله لهمْ ، ووجـودُ المشروط بدونِ تحَقُّقِ شرطِه ممتنعٌ فَعُلِمَ انتفاءُ المحَبَّة عندَ انتفـاءِ المُتابعَةِ للرَّسولِ. ولا يكفي ذلكَ حتَّى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحَبَّ إليْهِ ممَّا سواهُما. ومتى كانَ عندَهُ شيءٌ أحَبَّ إلَيه منهُما فهوَ الإشراكُ الذي لايغفرُهُ اللهُ. قال تعالى﴿قُلْ إن كانَ آباؤُكُمْ وأبناؤُكُمْ وإخـوانُكُمْ وأزواجُكُمْ وعَشيـرتُكم وأموالٌ اقـترَفـتُموها وتجـارةٌ تَخْشَونَ كَسادَها ومسَاكنُ تَرضَوْنَها أَحَبَّ إليكُم مِّنَ اللهِ ورَسوله وجهاد في سَبيله فتَربَّصوا حتَّى يأتيَ اللهُ بأمْره واللهُ لايهْدي القومَ الفاسقينَ﴾[2]، وكلُّ منْ قَدَّمَ قـولَ غـيرِ اللهِ على قولِ اللهِ أو حكَمَ به أو حـاكَمَ إليـه فلَيْسَ ممَّنْ أَحَبَّهُ لكنْ قدْ يشتبهُ الأمرُ على من يقدِّمُ قولَ أحَدٍ أوْ حُكْمَهُ أوْ طاعتَهُ علَى قـوله ظنا منهُ أنهُ لايأمـرُ ولا يحكُمُ ولا يقـولُ إلَّا ماقـالَ الرسولُ ﷺ فيُطيعُهُ ويحاكـمُ إليهِ ويَتَلَقَّى أقوالَهُ كذلكَ، فهذا مـعذورٌ إذا لمْ يَقدِر على غيرِ ذلِكَ.

---

(١) آل عمران: ٣١ — (٢) التوبة : ٢٤

وأمَّا إذا قدرَ على الوصولِ إلى الرَّسـول ﷺ وعَرَفَ أنَّ غيرَ من اتَّبَعَهُ أولى بهِ مُطْلَقًا أو فى بعضِ الأمورِ كمسألَة معيَّنة ولمْ يلتفتْ إلى قول الرسولِ ﷺ ولا إلى مَنْ هوَ أولى به ، فهذا يُخافُ عـليه ، وكلُّ مايتعلَّلُ بهِ من عدَمِ العلمِ أو عَدَمِ الفَهْمِ أو عدَمِ إعطاء آلة الفقْه فى الدِّينِ أو الاحتجاجِ بالأشباهِ والنَّظائرِ أو بأنَّ ذلكَ المتـقدمَ كانَ أعلمَ منِّى بمُرادِهِ ﷺ فَهِىَ كُلُّها تعلُّلات لاتفيدُ.

هذا معَ الإقْرارِ بجَوازِ الخَطأ على غيرِ المعصومِ إلَّا أن يُنازعَ فى هذهِ القاعدَة فتسقطَ مكالَمُتهُ، وهذا هو داخلٌ تحتَ الوعيدِ فإن استَحَلَّ معَ ذلكَ ثَلْبَ من خالَفَهُ وقَرضَ عـرضَهُ ودينَهُ بلِسانه، وانتقلَ من هذا إلى عقـوبتهِ أو السعيِ فى أذاهُ فهوَ من الظَّلَمَة المعتدينَ ونوَّابِ المفسدينَ .

واعلمْ أنَّ العبـادةَ أربعُ قواعِدَ، وهى: التحقـيقُ بما يُحبُّ اللهُ ورسولُهُ ويرضاهُ ، وقيـامُ ذلكَ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، فالـعُبُوديَّةُ اسمٌ جامعٌ لهذه المراتبِ الأربعِ : فأصحابُ العبادةِ حقا هم أصحابُها، فقولُ القلبِ هوَ اعتقادُ ماأخبرَ اللهُ تعالى عن نفسه وأخبرَ رسولُهُ عن ربِّهِ من أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكَته ولقائه وما أشبهَ ذلكَ. وقولُ اللسانِ الإخْبار عنهُ بذلكَ والدعاءُ إليـه والذَّبُّ عنه وتبيينُ بُطلانِ البدعِ المُخـالفَةِ لهُ، والقيامُ بذكـرهِ تعالى، وتبـليغُ أمره، وعـملُ القلبِ كـالمحبّة لهُ والـتوكلِ عليـهِ والإنابةِ والخوفِ والرجاءِ والإخلاصِ والصبـرِ على أوامرِهِ ونواهيهِ وإقرارهِ والرضاءِ بهِ ولهُ وعنهُ، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والإخبات إليهِ والطمأْنينة ونحـوِ ذلكَ من أعمـالِ القُلوبِ التى فـرضهـا آكد من فَرضِ أعْمـالِ الجوارحِ ومستحبُّها إلى الله تَعالى أَحَبُّ من مُستحَبِّ أعمالِ الجوارحِ، وأمَّا أعمالُ الجـوارِحِ فكالصَّلاةِ والجهادِ ونقلِ الأقدام إلى الجُمعَةِ والجـماعاتِ

ومساعدةَ الـعاجزِ والإحسانِ إلـى الخلقِ ونحـوِ ذلكَ. فَقَوْلُ العبـدِ فى صَلَواته ﴿إيّاكَ نعبُدُ﴾ التـزامُ أحْكامِ هـذهِ الأربعَةِ وإقـرارٌ بهـا، وقَوْلُهُ ﴿وإيّاكَ نَسْتَعينُ﴾ طلبُ الإعانةِ عليهـا والتوفـيقِ لها. وَقَوْلُهُ: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ المسْتَقيمَ﴾ متـضمنٌ للأمْرَيْنِ على التفـصيل وإلهامِ القِيامِ بهـما وسُلوكِ طريقِ السالكينَ إلى اللهِ تعالى.

واللهُ الموَفِّقُ بِمنِّهِ وكَرَمِه، والحمدُ للهِ وَحدهُ، وصلى اللهُ على مَن لانبيَّ بعدَهُ وآلِهِ وصحبِهِ وورِثيهِ وَحِزْبِهِ.

تم الكتاب والحمد للهِ أوَّلًا وآخِرًا

❊ ❊ ❊

قال الله لنبيه موسى عليه السلام:

«إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَآ إِله إِلَّآأَنَاْ فَاعبُدنِى وأَقِمِ الصَّلَاة لِذكرِى»

[طه: الآية: ١٤]

وقال سبحانه لنبيه محمد ﷺ:

«وَمَآ أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيهِ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَاْ فَاعبُدُونِ» [الأنبياء: الآية: ٢٥]

فائـــــدة:

كلام ابن القيّم فى حَلْق الرأس واللحية وفيه فوائد كثيرة

قد تقدم للمؤلفِ المقريزىّ كلامٌ فى حَلْقِ الرأسِ ، وأجمَلَ القولَ فى ذلكَ ، ولَمَّا كانَ الحُكْمُ فى ذاتهِ فيهِ تفصيلٌ ، أحببنا(*) أن نذكرَ هنا ماأوردَهُ الحافظُ العَلَّامةُ شمسُ الدينِ ابنُ القَيِّم(**) فى كتابهِ «زادِ المعادِ فى هَدى خيرِ العباد» ، قال فى كتاب الطب من الجزء الثانى فى علاج القمل الَّذى فى الرَّأسِ وإزالته: و حلقُ الرأسِ ثلاثةُ أنواع: أحَدُها نُسُكٌ وقُرْبَةٌ ، والثانى: بِدْعَةٌ وشرْكٌ ، والثالث: حاجَةٌ ودواءٌ. فالأولُ الحلقُ فى أحدِ النُّسُكَينِ: الحجِّ والعُمْرَةَ والثانى: حلقُ الرأسِ لغير الله سبحانَهُ وتعالى كما يَحْلِقُها المريدونَ لشيوخِهِم ، فَيقولُ أَحَدُهُم: أنا حلقتُ رأسى لفلان ، وأنتَ حلقتَهُ لفلان ، وهذا بمنزلة أن يقول سجدتُ لفلان فإنَّ حلقَ الرأسِ خضوعٌ وعبوديةٌ وذلٌّ ، ولهذا كان من تمام الحجِّ حتى أنه عند الشافعِىِّ رحمهُ اللهُ تعالى ركنٌ من أركانه لايتمُّ إلا بهِ ، فإنَّ وَضْعَ النواصى بينَ يدى ربِّها خضوعٌ لعظمتهِ ، وتذلُّلٌ لعِزَّتِهِ ، وهو من أبلَغِ أنواع العبودية ، ولهذا كانت العرَبُ إذا أرادت إذلالَ الأسيرِ منهم وعتْقه حلقوا رأسَهُ وأطلقوهُ ، فجاءَ شيوخُ الضلالِ والمزاحمون للربوبيَّةِ الذين أساسُ مشيختهم على الشِّرْكِ والبِدْعَةِ فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا

(*) الضمير «نا» يعود إلى الدار المنيرية للطباعة بالقاهرة، وهذه الفائدة من مختاراتها لبيان وتوضيح ماجاء بالإجمال فى الكتاب عن حلقِ الرأسِ تَعَبُّدًا.

(**) ابن قَيِّمِ الجَوْزِيةِ صاحب كتاب «مدارج السالكينَ»، توفى فى منتصف القرن الثامن الهجرىّ (٧٥١هـ)، والمقريزى توفى فى آخر النصف الأول من القرن التاسع الهجرى(٨٤٥هـ) وكان أثر كتاب مدارج السالكين لابن القيم واضحا كلَّ الوضوحِ فى كتاب «تجريدِ التوحيدِ المفيد» كما بيَّنَّاهُ فى المقدمة. (طاء).

لهم فزينوا لهم حلْقَ رُؤوسِهِمْ لهم كما زينوا لهم السجودَ لهم وسَمَّوْهُ بغير اسمه وقالوا: هوَ وضعُ الرأسِ بينَ يَدَيِ الشَّيْخِ ، ولَعَمْرُ اللهِ إنَّ السُّجودَ للهِ هُوَ وَضعُ الرأسِ بين يديه سبحانه وتعالى ، وزينوا لهم أن ينذِروا لَهُم ويتوبوا لهم ويَحلِفُوا بأسْمائِهِمْ.

وهذا هو اتِّخاذُهُمْ أربابًا من دون الله. قالَ تَعالى ﴿مَاكانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عبَادًا لى من دُونِ اللهِ ولَكن كُونُوا ربَّانِيِّينَ بما كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكتابَ وبما كُنتُمْ تَدْرُسونَ ۞ ولَا يَأْمُرَكُمْ أن تَتَّخِذُوا المَلائكَةَ والنَّبِيِّينَ أرْبابًا أيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إذْ أنتُم مُّسْلمُونَ﴾[(١)] وأشْرَفُ العُبوديَّة عبوديةُ الصلاة وقد تقاسمها الشيوخُ والمتشبِّهونَ بالعُلَماء والجبابرةُ فأخذَ الشيوخُ منها أشرفَ مافيها وهُوَ السُّجُودُ، وأخذَ المَتشَبِّهُونَ بِالعُلَماءِ الرُّكوعَ ، فإذا لَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ركَعَ لهُ كَمَا يركَعُ المصَلِّى لِربِّهِ سَواء ، وأَخَذَ الجَبابِرَةُ مِنْهُمُ القِيَامَ فَيَقُومُ الأحرارُ والعبيدُ على رؤوسِهِم ،عُبُودِيَّةً لَهُمْ وَهُم جُلوسٌ ، وقد نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن هذه الأمورِ الثلاثةِ على التفصيلِ ، فتعاطيها مخالفةٌ صريحةٌ له. فنَهى عن السجودِ لغيرِ اللهِ وقال«لاينبغى لأحَدٍ أن يسجُدَ لأحد» ، وأنكرَ على مُعاذ لـمَّا سجدَ لهُ وقال «مَه»(*) ، وتحريمُ هذا معلومٌ من دينه ضرورةً وتجويزُ من جوزَهُ لغير الله مراغمة لله ورسولِه ، وهو من أبلغ أنواع العبودية. فإذا جوَّز هذا المشركُ هذا النوعَ اليسيرَ فقد جوَّز عبوديةَ غيرِ اللهِ ، وقَدْ صَحَّ أنهُ قيلَ لهُ: «الرَّجُلُ يَلقَى أخاهُ ،أينحنى لهُ؟ قال: لا ، قال ، أيَلْزَمهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قال: لا ، قيل ، أيُصافحهُ؟ قال: نعم». وأيضا فالانحناءُ عند التحية سجودٌ ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعالَى ﴿وادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا﴾[(٢)] أىْ

---

(١) آل عمران: ٧٩ و ٨٠

(٢) البقرة: ٥٨

(*) «مه» اسم فعل أمر، بمعنى (كف عن هذا).

مُنْحَنِينَ ، وإلَّا ، فلا يمكنُ الدخولُ على الجباهِ ، وصحَّ عنهُ ﷺ النهيُ عنِ القيامِ وهو جالسٌ كَمَا يُعَظِّمُ الأعاجِمُ بعضَها بعضا[1] ،حتى منَعَ من ذلكَ فى الصلاة وأمـرَهُمْ إذا صلَّى جالسًا أن يصلُّوا جُلُوسًا وهـم أصحَّاءُ لاعُذْرَ لهم لئلَّا يَقُوموا على رأسهِ وَهُوَ جالسٌ[2] مع أن قيامَهُم للهِ فكيف إذا كان القيامُ تعظيماً وعبوديَّةً لغيره سبحانَهُ وتعالى.

والمقصودُ أن النفوسَ الجاهلةَ الضَّالَّةَ أسقطتْ عُبوديَّةَ اللهِ سـبحانه وتعالى وأشركت فيها مَنْ تُعَظِّمُهُ من الخَلْقِ فسجدتْ لغيرِ اللهِ، وركَعَتْ له ، وقامت بين يديه قيامَ الصلاةِ ، وحلفتْ بغَيْرِهِ ، ونذرت لغَيْرِهِ ، وحَلَقَتْ لغَيْرِهِ، وذَبَحَتْ لغَيْره ، وطافتْ بغـير بيـته ، وعَظَّمَتْهُ بالحبِّ والخوفِ والرَّجـاءِ والطاعة كما يُعَظَّمُ الخالقُ ، بلْ أشَدُّ ، وسَوَّتْ بينَ مَنْ يَعْبُدُهُ من المخلوقين بِرَبِّ العالَمينَ.

هؤلاء هم المضادُّون لدعوة الرسل وهـم الذين بربِّهم يَعـدلون وهم الذين يقولون وهم فى النار مع آلهتهم يخـتصمون ﴿**تاللهِ إن كُنَّا لَفى ضَلال مُّبـينٍ إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمينَ**﴾[3] وهم الذين قال فيهم ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ من دَونِ اللهِ أندَادًا يُحِبونَهُمْ كحُبِّ اللهِ والَّذِين آمَنُوا أشَدُّ حُبًّا للهِ**﴾[4] وهذا

---

(١) الحديث رواهُ أبو داود وابن مـاجة: قال الحافظ عـبد العظيم المنذرى وإسناده حسن أبو غالب فيه واسمه حزور ويقال نافع ويقال سـعيد بن الحذور فيه كلام طويل ذكرته فى مختصر السنن وغيره والغالب عليه التوثيق وقد صحح له الترمذى وغيره.ا.هـ. ورواه أيضا الترمـذى فى الشمائل، وفى مشروعيـة القيام للناس خلاف والصحيح التـفصيل والجـمع بين الأحاديث. وقـد ألف الإمـام النووى فى ذلك رسـالة وذكرها صـاحب المدخل فى كتابه وتعقبه فى كثير منها ورد كلامه فى جواز القيام فعليك بمطالعته، فإنه يغنيك.

(٢) أخرجهُ مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير عن جابر «أَنَّهُمْ لَمَّا صَلَّوا خَلْفَهُ قَعَدوا، قال، فلمَّا سَلَّمَ قال: إنْ كِدْتُمْ آنِفًا تـفعَلونَ فِعْلَ فارِسَ والرُّومِ ، يقومونَ على ملوكِهِم وهُمْ قُعودٌ، فلاَ تَفْعَلوا»

(٣) الشعراء: ٨٧، ٨٩ (٤) البقرة: ١٦٥

كلُّه من الشرك واللهُ لا يغفر أن يُشْرَكَ به.

فهذا فصلٌ معترضٌ فى هدْيه فى حلْق الرأسِ لعلّه أهمُّ مما قصد الكلام فيه ، واللهُ أعلم.

❋ ❋ ❋

كان الفراغ من إعـداد هذا الكتاب للطباعةِ بعد ضَبْطِ كَلِماتِهِ ، والتـعليق عليه ، ووضع العناوين الجـزئيـةِ الفاصِلَةِ بين كل فكرة وأخـرى ، وتعـيينِ أرقـامِ الآياتِ وسورها وتصحيح ماسَها عنْهُ طابِعوهُ من قـبل ،كان الفراغُ من ذلكَ فى شهرِ صفر من عام ١٤١٤ من الهجرةِ (يوليو عام ١٩٩٣ من الميلاد) بمنزلى بمدينة جدة العامرة بإذنِ الله ، وسيلى ذلكَ فصلٌ جديدٌ لابنِ قَيِّمِ الجوزيةِ بعنوان «عِبَادَةٌ واسْتِعانَةٌ» ، اخترتهُ من ملخص لكتابه «مدارج السالكين».

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين

أحمد بن محمد طاحون

تنبيه :

لفظ العبارة المخذوفة من السطر (١٢) صفحة (٥١) بعد قوله: إحداهما هو «تقرب من الإسلام والشرائع»

عبادة واستعانة

ملخص من كتاب مدارج السالكين للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ من الهجرة

فصلٌ مُلَخَّصٌ منْ كِتاب «مَدارِجِ السَّالِكينَ» للإمامِ شمسِ الدِّينِ بنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ المُتَوَفَّى عام ٧٥١ منَ الهِجْرَةِ.

اخْتَرْتُ هذاَ الفصلَ من كتاب «تهذيب مدارجِ السالكينَ» وأَلْحَقْتُهُ بهذِهِ الطَّبْعَةِ الجَديدةَ لِرسالَةِ الإمامِ المَقْريزِيِّ ، لِيَتَّضِحَ للقارئِ تأثيرُ الإمامِ ابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ فيمَنْ جاءَ بَعْدَهُ مِنَ العُلَماءِ ، كَمَا تَأَثَّرَ هُوَ نَفْسُهُ فى تَرْتِيبِ كِتَابِهِ «مَدَارِجِ السَّالِكينَ» ، وفى مِنْهَجِهِ العامِّ فيهِ بكتاب «مَنازِلِ السَّائرينَ» لِمُؤَلِّفِهِ شيخِ الإسْلامِ «أبى إسماعيلَ عَبْدِاللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الأنصاريِّ الهرويِّ الحَنْبَلِيِّ الصُّوفِيِّ ، المُتَوَفَّى عام ٤٨١ منَ الهِجْرَةِ.

وقدْ صَحَّحَ الإمامُ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ ماوقعَ فيهِ الهرويُّ منْ أخْطاءٍ وأَوْهامٍ ، فَجاءَ كتابُهُ «مَدارِجِ السَّالِكينَ» فى غايَةِ الدِّقَّةِ والثَّراءِ.

وإِنَّ الكَمالَ للهِ وَحْدَهُ والعِصْمَةَ لأَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ.

ابن قيم الجوزية :

كان أبوه قيما علــى مدرسة «الجوزية» بدمشق أما اسمه فهــو : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى ثم الدمشقى الحنبلى.

ولد سنة ٦٩١ من الهجرة وتوفى سنة ٧٥١ وقد نشأ فى بيت علم وفضل ، وأخذ العلم عن كــبار علمــاء عصــره ، تصدّى للإقــراء والإفتــاء سنين ، وانتفع الناس بــه ، وكان مشهودا له بالعلم والورع ، عارفا بالخلاف ومذاهب السلف مــتقيدا بالأدلة الصحيحة ، معجــبا بالعمل بها ، صــادعا بالحق لا يحابى فــيه أحدًا وقد صنف فى الفــقه والأصول والسير والتــاريخ وعلوم الحديث ، وكان لغويــا نحويا ، أديبا ، جاء فى كتــبه بكل رائع وجميل وصحيح ونافع جزاه الله عنا خير الجزاء.

❊ ❊ ❊

أبو إسماعيل الهروى:

هو أبو إســماعــيل: عبــد الله بن محــمد بن على بن منصــور بن متّ الأنصارى الهروى مصــنّف كتــاب «ذم الكلام» وشيخ خــراسان من ذرية أبى أيوب الأنصــارى الصحــابى الجليل رضى الله عنه. ولد فى سنــة خمس أو ست وتســعين وثلاثمــائة «أواخر القــرن الرابع من الهــجرة» وســمع من جمــيع علماء عــصره ، وقال عنــه محمــد ابن طاهر : سمعته يقول : إذا ذكرت التفسير ، فإنما أذكره من مائة وسبعة تفاسير وسمعته ينشد على المنبر.

أنا حنبلى ما حييت وإن أمت　　　فوصيتى للناس أن يتحنبلوا

وكتابه «منازل الســائرين» أطال فيه النفس ، وفيــه أشياء مطربة عظيمة الفــائدة ، وأشياء مشكله ، وقد حققــه الشيخ محمد حامد الفقى مع شرحــه «مدارج السالكين» للعلامة ابن قيم الجوزية الذى تعقب فى شرحه الأشياء المشكلة التى وردت فى ثنايا كتاب «منازل السائرين» وانتقدها ابن القيم انتقادا جيدا رصينا كما هو دأبه رحمه الله فى كل تواليفه ، وقد أزال فى شــرحه كل لبس وإشكال مما جــعل المدارج عظيم الفائدة عــالى الشأن بين الكتب القيمة الرفيعة المستوى .

وتوفى الهروى رحمه الله عام ٤٨١ من الهجرة

عبادةٌ واستعانةٌ

وَسِرُّ الخَلْقِ وَالأمْرِ ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرائِعِ ، وَالثَّوابِ وَالْعِقَابِ ، انْتَهَى إلى هَاتَينِ الكَلمَتَينِ. ❋

وهُما الكَلمَتَان المَقْسُومتَان بيْنَ الرَّبِّ وبَينَ عَبْده نصفَيْنِ ، فَنصفُهُما لَهُ تَعَالَى ، وَهُوَ «إيَّاكَ نَعْبُدُ» ، وَنصفُهُمَا لِعَبْدِهِ ، وَهُوَ «إيَّاكَ نَسْتَعينُ».

فى معنى العبادة:

و«العِبَادَةُ» تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غايَةَ الحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ والخُضوعِ ، والعَرَبُ تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ ، أَىْ: مُذَلَّلٌ ، والتَّعَبُّدُ: التَّذَلُّلُ والخُضوعُ ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ ، ولَمْ تكُنْ خاضِعًا لَهُ ، لَمْ تكُنْ عابِدًا لَهُ ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بلا مَحَبَّة ، لَمْ تكُنْ عابِدًا له ، حتى تكونَ مُحبا خاضعًا ، ومن هاهُنا ، كانَ المُنكرونَ مَحَبَّةَ العِبادِ لربِّهم مُنكرينَ حقيقةَ العُبوديَّة ، والمنكرونَ لكونه مَحبوبًا لَهُم ، بلْ هو غَايةُ مَطلوبِهِمْ وَوَجْهُهُ الأعلى نِهايَةُ بُغْيَتِهِمْ: مُنكرين لكونِهِ إلهًا ، وإن أقَرُّوا بكونه ربا للعالَمينَ وخالقًا لهُم ، فَهذا غايَةُ توحيدهِم وهو توحيدُ الرُّبوبيَّة ، الذى اعترفَ بِهِ مُشْرِكو العربِ ، ولمْ يَخرُجوا بِهِ عنِ الشِّرْك ، كما قالَ تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُف :٨٧]

وقالَ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر :٣٨]

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فيهَا إلَى قَوْلِهِ سَيَقُولونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المُؤْمنون: ٨٤: ٨٩]

ولِهذا يُحتَجُّ عليهِمْ بِهِ على توحيدِ إلَهيَّتِه ، وأَنَّهُ لاينْبَغى أنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ ،

❋ إلى هاتين الكلمتين: يشير إلى قوله تعالى: «إيَّاكَ نعبد❋وإيَّاكَ نستَعين»

كَمَا أَنَّهُ لاخَالِقَ غَيْرُهُ ، ولاَ رَبَّ سِواهُ.

فى معنى الاستعانة:

و«الاسْتِعَانَةُ» تجمعُ أصلَين: الثِّقةَ باللهِ والاعْتمَادَ عليه ، فإنَّ العبدَ قد يَثِقُ بالواحدِ منَ الناسِ ، ولا يعتمدُ عليه فى أمورِهِ مَع ثِقَتِه بهِ لاستغنائه عنهُ ، وقدْ يعتمدُ عليهِ مَع عدم ثقته به لحاجَتِه إلَيهِ ، ولعدمِ من يقومُ مقامَه فيحتاجُ إلى اعتمادهِ عليهِ ، مع أنهُ غيرُ واثِقٍ بهِ.

فى معنى التوكل:

و«التّوكُّلُ» معنًى يلتئمُ من أصلينِ: منَ الثقةِ ، والاعتمادِ ، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذان الأصلانِ وهُما التوكلُ ، والعبادةُ قدْ ذُكِرا فى القرآن فى عدةِ مواضعَ ، قُرِنَ بينهما فيها ، هذا أحَدُها.

الثانى: قولُ شُعَيْب ﴿وَمَا تَوْفِيقِى إلاَّ باللهِ عَلَيهِ توكَّلتُ وَإِلَيهِ أُنيب﴾ [هود : ٨٨]

الثالثُ: قولُهُ تَعالَى: ﴿وَللهِ غَيْبُ السَّموات والأرض وإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وتَوكَّلْ عَلَيْه﴾ [هود: ١٢٣]

الرَّابع: قولُهُ تعالى حِكايَةً عَنِ المُؤْمِنينَ : ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوكَّلنا وإِلَيْكَ أَنبنَا وإِلَيْكَ المَصير﴾ [المُمْتحَنَة :٤]

الخامسُ: قَولُهُ تعالى : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا * رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فاتَّخذْهُ وَكيلا﴾ [المزمل :٨، ٩]

السَادسُ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوكَّلتُ وَإِلَيْه مَتَاب﴾ [الرَّعد : ٣٠]

فَهَذه ستَّةُ مَواضعَ يَجْمَعُ فيهَا بينَ الأصلَيْنِ ، وَهُمَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وتقديمُ «العبادة» على «الاستعانة» فى الفاتحة ، من باب تقديمِ الغاياتِ على الوسائلِ ، إذ «العبادَةُ» غايَةُ العباد التى خُلقوا لها ، و«الاستعانةُ» وسيلةٌ إليها ، ولأنَّ «إياكَ نعبدُ» متعلِّقٌ بألوهيَّته واسْمه «الله» و «إياكَ نستعينُ» متعلِّقٌ بِرُبُوبيَّتِه واسمِه «الرب» فقدَّمَ «إيَّاكَ نَعْبُدُ» عَلَى «إيَّاكَ نستعينُ» كما قدم اسمَ «اللهِ» على «الرب» فى أول السورة ، لأنَّ «إيَّاكَ نعبُدُ» قِسْمُ* الربِّ ، فكان من الشطر الأول ، الذى هو ثناء على اللهِ تعالى ، لكونهِ أولى به ، و«إيَّاكَ نستعينُ» قِسْمُ العبد ، فكانَ من الشطر الذى له ، وهو «اهدنَا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ» إلى آخرِ السُّورَةِ.

ولأنَّ «الاستعانَةَ» جُزْءٌ من «العبادة» من غير عكس ، ولأنَّ «الاستعانةَ» طلبٌ منهُ ، و «العبادةَ» طلبٌ له.

ولأنَّ العبادةَ لاتكونُ إلَّا من مُخْلِصٍ ، و«الاستعانة» تكونُ من مُخْلِصٍ وَمِنْ غيرِ مُخْلِصٍ.

ولأنَّ «العبادة» حَقُّهُ** الذى أوجبهُ عليكَ ، و«الاستعانةَ» طلبُ العون على العبادةِ ، وهوَ بيانُ صَدَقَتهِ التى تصدَّقَ بها عليكَ ، وأداءُ حَقِّهِ أهمُّ من التعرض لصَدَقَته.

ولأنَّ «العبادَة» شكرُ نعمته عليكَ ، واللهُ يحبُّ أن يُشْكَرَ ، و«الإعانةَ» فعْلُهُ بكَ وتوفيقُهُ لكَ ، فإذا التزمتَ عبوديَّتَهُ ، ودَخَلْتَ تحتَ رِقِّها أعانكَ عليها ، فكان التزامها والدُّخولُ تحتَ رِقِّها سَبَبًا لِنَيْلِ الإعانةِ وكلما كان العبدُ أتَمَّ عبوديَّةً كانت الإعانة من الله لهُ أعظَمَ.

و«العبودِيَّةُ» محفوفةٌ بإعانتينِ: إعانَة قَبْلَهَا على التِزامِها والقيامِ بها ،

(*) القِسْم بكسر القاف وسكون السين معناه فى اللغة الحظّ والنصيب من الخير.

(**) حقّه: الهاء الضمير ترجع إلى لفظ الجلالة «الله» أى: حق الله على عباده

وإعانة بعدَها على عبوديَّة أُخرى ، وهكذا أبدًا ، حتى يقضى العبدُ نَحْبَهُ.

فهذه الأسْرارُ يتبيَّنُ بها حكْمَةُ تقديمِ «إيَّاكَ نَعْبُدُ» على «إيَّاكَ نَسْتَعينُ».

وأمَّا تقديمُ المعبودِ والمُسْتَعانِ على الفعْلَينِ ، فـفيه أدبُهُم مع اللهِ بتقديمِ اسمه على فعْلِهِمْ ، وفيهِ الاهْتمامُ وشدَّةُ العنايَةِ به ، وفيهِ الإيذانُ بالاختصاصِ المُسَمَّى بالحَصْرِ ، فهوَ فى قوَّة: لاَ نَعْبُدُ إلاَّ إيَّاكَ ، ولا نَسْتَعينُ إلَّا بِكَ ، والحاكمُ فى ذلكَ ذَوْقُ العَرَبيَّةِ والفقْهُ فيها.

وتأمَّلْ قولَهُ تـعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] ، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]. كيف تجـدهُ فى قُوة: لاترهبوا غيرى ، ولا تتقوا سوايَ. وكذلكَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو فى قوة : لانعـبدُ غيرَكَ ، ولا نستعينُ بسـواكَ. وكُلُّ ذى ذوقٍ سليمٍ يفهَمُ هذا الاختصاصَ من عِلَّةِ السِّياق.

وفى إعادَةِ «إيَّاكَ» مـرةً أخرى دلالةٌ على تَعلُّقِ هذهِ الأمـورِ بكلٍّ واحدٍ من الفعْلَينِ ، ففى إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ماليس فى حذفه فإذا قلتَ لملكٍ مثلاً : إيّاكَ أُحِبُّ ، وإيّاكَ أخافُ ، كان فيه من اختصاص الحب والخوفِ بذاته ، والاهتمام بـذكرِهِ ، ماليسَ فى قولِكَ: إياكَ أُحِبُّ وأخافُ.

نستعينُ باللَّه عَلى عبادَته:

إذا عرَفتَ هذا ، فالنَاسُ فى هذينِ الأصلينِ وهُما العبادةُ والاستعانةُ أربعةُ أقسام.

أجَلُّها وأفضَلُها: أهلُ العبادةِ والاستعانَة باللهِ عليها ، فَعبادَةُ اللهِ غايةُ مرادهم ، وطلبُهُم منهُ أن يُعينَهُم عليها ، ويُوَفِّقَهُم للقيام بها.

ولهـذا كـان من أفضـلِ مايُسْألُ الربُّ تبـارك وتعـالى: الإعـانَةُ على

مرضاته ، وهو الذى علَّمَهُ النبىُّ ﷺ لحبِّه معاذ بنِ جبل رضى اللهُ عنه فقال «يامُعاذُ ، والله إنى لأُحبُّكَ ، فلا تنسَ أن تقولَ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ : اللَّهُمَّ أعنِّى على ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عبادَتِكَ» [1].

فأنفعُ الدُّعاءِ: طلبُ العونِ على مرضاته ، وأفضلُ المواهبِ: إسعافُهُ بهذا المَطلوبِ ، وجميعُ الأدعيَةِ المأثورةِ مدارُها على هذا ،وعلى دفعِ مايُضادُّهُ وعلى تكميله وتيسير أسبابه ، فَتَأَمَّلها.

وقال شيخُ الإسْلامِ ابنُ تيمية قَدَّسَ اللهُ روحَهُ :تأمَّلْتُ أنفعَ الدُّعاء: فإذا هو سؤالُ العون على مرضاته ، ثم رأيْتُهُ فى الفاتحةِ فى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

إمدادُ الكافرِ زيادةُ حجَّةٍ عليهِ:

ومقابلُ هؤُلاء:

القسمُ الثانى: وهُم المُعْرِضونَ عن عِبادَتِه والاستعانَةِ به ، فلا عبادةَ ولا استعانةَ ، بلْ إنْ سألَهُ أحَدُهُم واستعانَ به ، فعلى حظوظهِ وشهَواته لاعلى مرضاة ربِّه وحقوقه ، فإنَّهُ سبحانَهُ يسألهُ من فى السماوات والأرض: يسأله أوليـاؤُهُ وأعـداؤُهُ ، ويُمدُّ هؤُلاءِ وهـؤُلاء. وأبغضُ خلقِه: عـدوهُّ إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجـةً ، فأعطاه إيَّاها ، ومتَّعَهُ بها ، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاتِهِ ، كانت زيادةً لهُ فى شِقْوَتِه ، وبُعْدِهِ عن اللهِ وطَرْدِهِ عنهُ. وهكذا كلُّ من استعان به على أمرٍ ، وسأَلَهُ إيّاهُ ، ولم يكن عونا على طاعته ، كانَ مُبعدًا لهُ عن مرضاتِه ، قاطعًا له عنهُ ولا بُدَّ.

وليتأمَّلِ العاقلُ هذا فى نفسهِ وفى غيره ، وليَعْلَمْ أن إجابَةَ الله لسائليه ليستْ لكرامَةِ السائل عليهِ ، بل يسألهُ عبدُهُ الحاجةَ فيقضيها له ، وفيها هلاكُهُ

---

(١) صحيح رواه أبو داود (١٥٢٢) وأحمد ٥/٢٤٥، ٢٤٧ والحاكم ١٠/٢٧٣

وشقوته ، ويكونُ قضاؤها لهُ من هوانهِ عليه ، وسقوطه من عينه ،ويكونُ منعُهُ منها لكرامته عليه ومحبَّته له ، فيمنعهُ حمايةً وصيانةً وحفظًا لابُخْلاً ، وهذا إنما يفعلُهُ بعبده الذى يُريدُ كرامَتَهُ ومَحبَّتَهُ ، ويُعاملُهُ بلُطْفه ، فيظنُّ بجهله أنَّ اللهَ لايُحبُّهُ ولا يُكْرِمُهُ ، ويراهُ يقضى حوائج غيره ، فيسيءُ ظَنَّهُ بربه ، وهذا حشو قلبِهِ ولا يشعُرُ به ، والمَعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، والإنْسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ ، وعلامةُ هذا: حملُهُ على الأقدارِ ، وعِتابُهُ الباطِنُ لها كما قيل:

وعَاجزُ الرَّأْيِ مضْياعٌ لِفُرْصتِهِ حَتَّى إذا فاتَ أَمْرٌ عاتَبَ القَدَرا

فَوَاللهِ لوْ كشفَ عن حاصلِهِ وسرِّهِ ، لرأى هُناكَ معاتبةَ القَدَرِ واتهامهُ وأنَّهُ قد كان ينبغى أن يكونَ كذا وكذا ، ولكن ماحيلتى ، والأمْرُ ليسَ إلَيَّ؟ والعاقلُ خصمُ نفسِهِ ، والجاهِلُ خَصمُ أقدارِ ربِّه.

فاحذَرْ كُلَّ الحذَرِ أن تسألَهُ شيئا معينًا خيرتُه وعاقبتهُ مُغَيَّبَةٌ عنك ، وإذا لم تجد من سؤاله بُدًّا فَعَلِّقهُ على شرط عِلمه تعالى فيه الخِيرَةَ ، وقَدِّمْ بَيْنَ يدى سؤالكَ الاستخارةَ ، ولا تكن استخارةً باللِّسانِ بلا معرفَةٍ ، بل استخارَةَ مَنْ لاعِلمَ له بمصالحه ، ولا قُدْرَةَ له عليها ، ولا اهتداءَ لهُ إلى تفاصيلها ، ولا يملكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ، بل إن وُكِّلَ إلى نفسه ، هَلَكَ كُلَّ الهلاكِ ، وانفرطَ عليه أمرُهُ.

وإذا أعطاكَ بِلا سُؤال: تَسْألُهُ أن يجعَلَهُ عَوْنًا لكَ على طاعتهِ ،وبَلاغًا إلى مرْضاته ، ولا يجعلْهُ قاطعًا لكَ عنهُ ، ولا مُبْعدًا عن مرضاته ، ولا تَظُنّ أن عطاءَهُ كلَّ ماأعطى لكرامة عبدِهِ عليه ، ولا منْعَهُ كُلَّ مايَمْنَعهُ لِهَوان عَبْده عَلَيْه ، ولكنَّ عَطاءَهُ ومَنْعَهُ ابتلاءٌ وامتحانٌ يَمْتَحنُ بهما عبادَهُ. قال اللهُ تعالى: ﴿فأمَّا الإنسَانُ إذاَ ماابتَلاهُ ربُّهُ فأكرَمَهُ ونَعَّمَهُ فيقولُ ربِّيَ

أكْرَمَنِ ۞ وأمَّا إذاَ ماابتَلاهُ فقَدَرَ عَلَيْه رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أهَانَنِ﴾

[الفَجْر: ١٥، ١٦]

أىْ لَيْسَ كُلُّ من أعطيْتُهُ ونَعَّمتُهُ وَخَوَّلْتُهُ ، فقدْ أكرمتُهُ ، وما ذاكَ لكرامَتِه علَىَّ ، ولكنَّهُ ابتلاءٌ منى ، وامتحانٌ لَهُ ، أيَشْكُرُنى فأُعْطِيَهُ فَوْقَ ذلكَ ، أم يكفُرُنى فأسْلُبَهُ إيَّاهُ ، وأُخوِّلَ فيه غَيْره؟ وليسَ كلُّ مَنِ ابتليتُهُ فَضَيَّقتُ عليه رزقَهُ ، وجعلتُهُ بقَدَرٍ لايفضُلُ عنه ، فذلكَ من هوانه علىَّ ، ولكنَّهُ ابتلاءٌ وامتحانٌ منِّى لَهُ ، أيَصْبِرُ؟ فأُعطيه أضْعافَ أضعافَ مافاتَهُ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ أم يَتَسخَّطُ؟ فيكون حظهُ السخط.

فَرَدَّ اللهُ سبحانَهُ على من ظنَّ أن سَعَةَ الـرِّزْقِ إكرامٌ ، وأنَّ الفقرَ إهانةٌ فقال: لم أبتلِ عَبدى بالغِنَى لِكَرامَتِه علَىَّ ، ولم أبـتله بالفقرِ لهوانه علىَّ فأخـبرَ أن الإكرامَ والإهانةَ لا يدورانِ على المال وسَعـةِ الرِّزقِ وتقديرِه ، فإنَّهُ سُبحانَهُ يُوَسِّعُ على الكافرِ لا لكَرامتَه ، ويُقَتِّرُ على المُؤمنِ لا لإهانَتِه إنَّما يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمهُ بِمَعْرِفَتِه ومَحَبَّتِه وطاعَتِه ، ويُهينُ مَنْ يُهينُهُ بالإعْراضِ عنهُ ومَعْصيته ، فَلَهُ الحمدُ على هذا وعلى هذا ، وهو الغنىُّ الحميدُ.

فَعادَتْ سَعادَةُ الدُّنيا والآخرَةِ إلى ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ ۞وإيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾.

الْعِبَادَةُ بِلاَ اسْتِعانَة : نَقْصٌ:

القسمُ الثَالثُ: مَنْ له نوعُ عِبادةٍ بلا استعانةٍ. وهؤلاءِ نوعان:

أَحَدُهُما: القَدَرِيَّة ، القـائلونَ بأنه قد فعل بالعـبدِ جميعَ مـقدورِه منَ الألطاف ، وأنهُ لم يبقَ فى مـقـدورِه إعانَةٌ له على الفـعْلِ ، فإنَّهُ قـد أعانهُ بخَلْقِ الآلات وسلامتها ، وتعريف الطَّريقِ ، وإرْسالِ الرُّسُلِ ، وتمكيـنه منَ الفعلِ فلمْ يبقَ بعدَ هذا إعانةٌ مقْدورَةٌ يسأَلُهُ إيَّاها ، بلْ قد ساوى بينَ أوليائه وأعدائه فى الإعانَةِ. فأعانَ هؤُلاءِ كَما أعـانَ هؤُلاءِ ، ولكنَّ أولياءَهُ اخـتاروا

لنفوسِهِم الإيمانَ ، وأعداءَهُ اختاروا لنفـوسهم الكفرَ ، من غير أن يكونَ اللهُ سبحانَهُ وفَّقَ هؤلاء بتوفيقٍ زائد ، أوجَبَ لهمُ الإيمانَ ، وخذلَ هؤُلاء بأمرٍ آخرَ ، أوجَبَ لَهُمْ الكُفْرَ ، فَهؤلاءِ لهُم نصيبٌ منقوصٌ منَ العبادةِ لا استعانةَ مَعَهُ ، فهُم موكولونَ إلى أنفُسِهِمْ ، مسدودٌ عليهم طريقُ الاستعانةِ والتَّوْحيدِ. قالَ ابنُ عباسٍ رضى الله عنهمـا : الإيمانُ بالقَدرِ نظامُ التوحيدِ فمَنْ آمَنَ باللهِ وكَذَّبَ بقَدَرِه ، نقضَ تكذيبُهُ توْحيدَهُ.

النوعُ الثانى: مَنْ لَهُمْ عباداتٌ وأورادٌ ، ولكن حظَّهُم ناقِصٌ منَ التَّوكُّلِ والاستعانَةِ ، لَمْ تَتَّسِعْ قلوبُهُم لارتبـاطِ الأسبابِ بالقَدَرِ ، وتلاشيها فى ضِمْنِه ، وقيـامِها بِهِ ، وأنَّها بدونِ القَدَرِ كـالموات الذى لاتأثيرَ لهُ ، بلْ كـالعَدَمِ الذى لاوجـودَ لهُ ، وأنَّ القَدَرَ كـالرُّوحِ المُحَرِّكِ لهـا ، والمُعَوَّلَ على المحرِّكِ الأوَّلِ.

فَلَمْ تَنْفُذْ قوى بصـائرِهِمْ من المتحـركِ إلى المحَرِّكِ ، ومنَ السَّبَبِ إلى المُسَبِّبِ ، وَمِنَ الآلَةِ إلى الفاعِلِ ، فضعُفَتْ عزائِمُهُمْ وقصرت هِمَمُهُمْ ، فقلَّ نَصيبُهُمْ من «إيَاكَ نَسْتَعِينُ» ولم يجدوا ذوقَ التَّعَبُّدِ بالتَّوكُّلِ والاستعانة وإن وجدوا ذوقَهُ بالأورادِ والوظائفِ.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذِ والتأثيرِ ، بحسبِ استعانَتِهِم وتوكُّلِهِم ولهم من الخذلانِ والضعف والمهانة والعجزِ بحسب قلة استعانَتِهم وتوكلهم ولو توكَّلَ العـبدُ على اللهِ حقَّ تـوكُّلِهِ فى إزالةِ جبلٍ عن مكانِهِ ، وكـان مأموراً بإزالَتِه ، لأزالَهُ.

تفسير لمعنى التوكل والاستعانة:

فإن قلت: فما معنى التوكُّل والاستعانة؟

قلت: هو حالٌ للقلبِ ينشأُ عن معرفَتِه باللهِ ، والإيمان بتفرُّدِهِ بالخَلْقِ

والتدبيرِ والضررِ والنفعِ والعطاءِ والمنعِ ، وأنَّهُ ماشاء كان ، وإنْ لم يَشَأْ الناسُ وما لم يشأْ لم يكنْ ، وإنْ شاءهُ الناسُ ، فيوجِبُ لهُ هذا اعتمادا عليه ، وَتَفْويضًا إليه ، وطُمَأْنينَةً به ، وثقةً به ، ويَقينًا بكفايته لمَا توكَّلَ عليهِ فيه وأنَّهُ مَليٌّ به ، ولا يكون إلَّابمَشيئَته ، شاءهُ الناسُ أم أَبَوْهُ.

فتُشبهُ حَالَتُهُ حالَةَ الطِّفْلِ مع أبويه فيما ينوبهُ من رغبةٍ ورهبةٍ هما مَلِيَّان بهما ، فَانْظُرْ فى تجرُّدِ قَلْبِه عَنِ الالْتفَات إلى غَيْرِ أبَوَيْه ، وَحَبسِ هَمِّه على إنزالِ مايَنوبهُ بِهمَا ، فَهذه حَالُ المتَوكِّلِ ، وَمَنْ كانَ هكَذا مَعَ الله فاللهُ كافيهِ ولا بُد. قالَ الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]

أى كافيه ، و«الحسب» الكافى ، فإنْ كانَ مع هذا منْ أهلِ التَّقْوى كانَتْ لَهُ العَاقبةُ الحَميدَةُ ، وإنْ لَمْ يكُنْ منْ أهْلِ التَّقْوى فَهُوَ:

القسْمُ الرَّابِعُ: وهُوَ مَنْ شَهدَ تَفرُّدَ الله بالنَّفْعِ والضُّرِّ ، وأنَّهُ ماشاءَ كان ، وَما لَمْ يَشَأْ لَمْ يكُنْ ، ولَمْ يَدُرْ معَ مايُحِبُّهُ ويَرْضاهُ ، فَتَوكلَ عَلَيه ، واستَعانَ به على حُظوظه وشَهَواته وأغْراضه ، وطَلَبَهَا منْهُ ، وأنْزَلَها بِهِ ، فَقُضِيَتْ لَهُ ، وأُسْعِفَ بِهَا ، سَوَاءٌ كانتْ أموالا أوْ رِياسَةً أوْ جاهًا عندَ الخَلْقِ ، أو أحوالا منْ كَشْفٍ وَتَأْثيرٍ وَقُوَّةٍ وتَمْكينٍ ، ولكنْ لاعاقبَةَ لهُ ، فإنها من جنسِ المُلْك الظاهرِ والأَموالِ ، ولا تستلزمُ الإسْلامَ ، فضلاً عنِ الوَلايَةِ والقُرْبِ منَ الله ، فإنَّ المُلْكَ والجاهَ والمالَ والحالَ مُعْطاةٌ للبَرِّ والفاجرِ ، والمُؤْمنِ والكافرِ ، فمَن استدَلَّ بشيْءٍ منْ ذلكَ على محبَّة الله لمَنْ آتاهُ إيَّاهُ ، ورِضاهُ عنهُ ، وأنَّهُ منْ أوْليائه المُقَرَّبينَ ، فهوَ من أجهَلِ الجاهلينَ ، وأبعدهم عن معرفة الله ومَعْرِفَةِ دينه ، والتمييزِ بين مايُحِبُّهُ ويرضَاهُ ، ويكْرَهُهُ ويسخطهُ. فالحَالُ من الدنيا. فهوَ كالمُلْك والمال ، إنْ أعانَ صاحِبَهُ على طاعَةِ اللهِ ومرضاتِهِ ، وتنفيذِ أوامِرِهِ ، ألْحَقَهُ بالمُلوكِ

العادلينَ البررَة ، وإلَّا فهُوَ وبالٌ على صاحبِهِ ، ومُبعِدٌ لَهُ عنِ اللهِ ، ومُلحِقٌ لَهُ بالملوكِ الظَّلَمةِ ، والأغنياء الفَجرَة.

مُتابعَةٌ وإخْلاصٌ

إذاَ عُرِفَ هذا: فلاَ يكونُ العبدُ متحقِّقاً بـ«إيّاكَ نَعبُدُ» إلَّا بأصلينِ عَظيمَيْنِ.

أَحَدُهُما: مُتابعَةُ الرّسُولِ ﷺ.

والثَّانى: الإخلاصُ للْمَعْبود. فهذا تحقيقُ «إيَّاكَ نَعبُدُ».

والناسُ منقَسِمونَ بحَسَبِ هذينِ الأصلينِ أيضاً إلى أربَعَةِ أقْسام.

الضَّرْبُ الأول: أهلُ الإخلاصِ للمعبود والمتابعةِ ، وَهُم أهلُ «إيَّاكَ نعبُدُ» حقيقة. فأعمالُهُم كُلُّها لله ، وأقوالُهُمْ لله ، وعطاؤهمْ لله ، ومنعُهُمْ لله وحُبُّهُمْ لله ، وبُغْضُهُمْ لله. فَمُعامَلَتُهُم ظاهراً وباطنًا لوَجْهِ الله وَحْدَهُ ،لايُريدونَ بذَلكَ منَ النَّاسِ جزاءً ولا شُكوراً ، ولا ابتغاءَ الجاهِ عِنْدَهُم ، ولا طلَبَ المَحْمَدَةِ ، والمَنْزلَةِ فى قلوبهم ، ولا هربًا من ذَمِّهمْ ، بل قدْ عَدُّوا الناسَ بمَنْزلَةِ أصْحابِ القُبورِ ، لايَمْلكونَ لَهُمْ ضَرًّا ولا نَفْعًا ، ولا مَوْتًا ولاحَياةً ولا نُشوراً. فالعملُ لأجْلِ الناسِ ، وابْتغاء الجاه والمَنْزِلَة عِنْدَهُمْ ، ورجائهمْ للضُّرِّ والنّفعِ منهم: لايكونُ من عارفٍ بِهِم ألْبَتَّةَ ، بلْ من جاهلٍ بشأنِهمْ وَجاهلٍ بربِّه. فمن عرف الناس ، أنزلهم منازلهم ، ومن عرف الله أخلص لهُ أعمالَهُ وأقوالَهُ ، وعطاءَهُ ومنعَهُ وحُبَّهُ وبُغْضَهُ ، ولا يعاملُ أحدٌ الخَلْقَ دونَ الله إلَّالجَهْله بالله ، وجَهْله بالخلقِ ، وإلَّا فإذا عَرَفَ اللهَ ، وعَرَفَ الناسَ آثَرَ مُعَامَلَةَ الله على مُعاملَتِهِمْ.

وكذلكَ أعْمالُهُم كُلُّها وعِبادَتَهُمْ موافقَةٌ لأمْرِ الله ، ولِما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ. وهذاَ هو العمل الذى لايقبلُ اللهُ منْ عاملٍ سواهُ ، وَهُوَ الذى بَلاَ عبادَه بالموت والحياة لأجْله ، قال اللهُ تعَالَى: ﴿الَّذى خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]

وَجَعَلَ ماعَلى الأَرضِ زينَةً لَهَا لِيَخْتَبِرَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عملاً. قالَ الفضيلُ بنُ عِياض: العملُ الحَسَنُ هوَ أخلصُهُ وأصوبُهُ، قالوا: ياأبا عَليٍّ ماأخْلَصُهُ وأصْوَبُهُ؟ قال: إنَّ العملَ إذا كانَ خالصاً ولم يكن صواباً، لمْ يُقبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصا: لم يقبل، حتى يكونَ خالصاً وصواباً، والخالصُ: ماكان لله، والصَّوابُ: ماكان على السُّنَّة.

وهذا هو المذكورُ فى قوله تعالى ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُوا لقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالحًا ولا يُشْرِكْ بعبادَةِ ربِّه أحدًا**﴾ [الكَهْف: ١١٠]

وَفى قَوْلِهِ: ﴿**ومَنْ أَحْسَنُ دينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ [النساء: ١٢٥]

فَلا يَقبَل اللهُ منَ العَمَلِ إلَّا مَاكَانَ خالصاً لوَجْهِهِ، على مُتابَعة أمرِهِ. وَما عَدا ذلكَ فَهُوَ مَرْدودٌ على عامله، يُرَدُّ عَلَيه أَحْوَجَ ماهوَ إلَيهِ هَباءً منثوراً. وفى الصحيحِ من حديثِ عائشَةَ عنِ النبيِّ ﷺ: «كلُّ عَمَلٍ ليسَ عَلَيْه أَمرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (١) وكلُّ عملٍ بلاَ اقتداء، فإنهُ لايزيدُ عاملَهُ من الله إلَّا بُعْداً، فإنَّ اللهَ تعالى إنما يُعْبَدُ بأمْرِهِ، لا بالآراء والأهواءِ.

الضربُ الثانى: مَن لا إخلاصَ له ولا متابعةَ، فليسَ عملُهُ موافقاً لشَرْعٍ وليس هو خالصاً للمعبودِ، كأعمالِ المُتَزيِّنينَ للنَّاسِ، المُرائينَ لَهُمْ بما لمْ يشرعهُ اللهُ ورسولُهُ، وهؤلاء شرارُ الخلق، وأمقَتُهُمْ إلى الله عز وجلَّ ولهُمْ أوفرُ نصيب من قَوله ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَفْرَحونَ بمَا أَتَوْا ويُحبُّونَ أن يُحْمَدوا بِما لَمْ يَفْعَلوافَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمفازَةٍ منَ العَذَابِ ولَهُمْ عَذَابٌ أليم**﴾ [آل عمران: ١٨٨]

يَفرحونَ بِما أتَوْا من البِدْعَةِ والضَّلالَةِ والشِّرْكِ، ويُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدوا باتِّباعِ

---

(١) رواه البُخارى (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) بلفظ: «من أحدَثَ فى ديننا ماليس منه فهو ردٌّ» ورواه مُسلم (١٧١٨) بلفظ: «من عمل عملاً ليسَ عليهِ أمرُنا فهوَ ردٌّ».

السُّنَّةِ والإخْلاص.

وهذا الضَّرْبُ يَكْثُرُ فيمَن انحرفَ منَ المُتَسبينَ إلى العِلْمِ والفَقْرِ والعبادَة عن الصراط المستقيم، فإنَّهُم يرتكبون البدعَ والضلالاتِ، والرِّياءَ والسُّمْعَة ويحبون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوهُ من الاتِّباعِ والإخلاص والعلمِ، فهم أهلُ الغَضَبِ والضلال.

الضربُ الثالثُ: مَنْ هو مُخلِصٌ فى أعمالِه، لكنَّها على غيرِ مُتابعَةِ الأمْرِ كَجُهَّالِ العُبَّادِ، والمُتَسبينَ إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره واعتقد عبادته هذه قُرْبَةً إلى الله فهذا حالُهُ، كمَنْ يظنُّ أن سماعَ المُكاء والتَّصْدِيَةِ قُرْبَةٌ، وأنَّ الخَلوةَ التى يَتْرُكُ فيها الجُمْعَةَ والجَماعَةَ قُرْبَةٌ، وأنَّ مواصلةَ صومِ النَّهارِ بالليلِ قُرْبَةٌ، وأنَّ صيامَ يومِ فِطْرِ الناسِ كُلِّهِمْ قُرْبَةٌ، وأمثال ذلك.

الضَّربُ الرابعُ: مَنْ أعمالُهُ على متابعة الأمر، لكنها لغيرِ الله، كطاعة المُرائينَ، وكالرجُلِ يُقاتلُ رياءً، وحَمِيَّةً وشجاعةً، ويحجُّ لِيُقالَ ويقرأُ القرآنَ لِيُقالَ، فهَؤُلاء أَعْمالُهُمْ ظاهرُها أعمالٌ صالحةٌ مأمورٌ بها لكنَّها غيرُ صالِحَةٍ، فلاَ تُقبَلُ ﴿وَمَا أُمِروا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البيِّنَة: ٥]

فكُلُّ أحَدٍ لم يُؤمَر إلاَّ بعِبادة الله بما أمَرَ، والإخلاصِ لهُ فى العِبادةِ، وهم أهل ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ و﴿إيَّاكَ نَستعين﴾.

الميزانُ الصحيح لأفضلية العبادة

ثمَّ أهلُ مقامِ «إياكَ نَعبُدُ» لهُمْ فى أفضلِ العِبادَةِ وأنفَعِها وأحَقِّها بالإيثارِ والتَّخْصيصِ أربَعُ طُرُقٍ، فَهُم فى ذلكَ أربعَةُ أصناف.

الصِّنْفُ الأولُ: عندَهُمْ أنفَعُ العباداتِ وأفضَلُها: أشقُّها على النفوسِ وأصْعَبُها.

قالوا: لأنهُ أبعدُ الأشياء عن هواها ، وهو حقيقةُ التَّعَبُّد.

قالوا: والأجْرُ على قَدْرِ المَشَقَّة.. وروَوْا حديثاً لا أصْلَ لهُ «أفْضَلُ الأعْمالِ أحْمَزُها» أىْ أصْعَبُها وأشَقُّها.

وَهؤُلاءِ :هُمْ أهْلُ المُجاهَدات والجَورِ على النُّفوسِ.

قالوا: وإنَّما تَسْتَقيمُ النُّفوسُ بِذلكَ ، إذْ طَبْعُهَا الكَسَلُ والمَهَانَةُ ، والإخْلادُ إلى الأرْضِ ، فلاَ تَسْتَقيمُ إلَّا بِرُكوبِ الأهْوال وتَحَمُّلِ المَشاقِّ.

الصِّنْفُ الثانى: قالوا: أفضلُ العِبادات التَّجَرُّد ، والزُّهدُ فى الدنيا ، والتَّقَلُّلُ منها غايةَ الإمكانِ ، واطِّراحُ الاهتمامِ بها ، وعدمُ الاكتراثِ بِكُلِّ ماهوَ منها.

ثُمَّ هؤُلاءِ قسمان:

فَعوامُّهُمْ: ظَنُّوا أن هذا غاية ، فشمَّروا إليه ، وَعَمِلُوا عليه ، ودَعَوْا الناسَ إلَيْهِ ، وقالُوا: هُو أفضَلُ مِن درجةِ العِلْمِ والعِبادةِ ، فَرَأَوا الزُّهدَ فى الدنيا غايةَ كُلِّ عبادَةٍ ورَأْسَهَا.

وخَواصُّهُمْ : رأَوْا هذا مقصوداً لِغَيْرِه ،وأن المقصود به عكوفُ القلبِ على الله ، وجمْعُ الهِمَّة عليه ، وتفريغُ القلبِ لِمَحَبَّته ،والإنابةُ إليهِ ، والتوكُّلُ عليه ، والاشتغالُ بمرضاته ، ودوامُ ذكره بالقَلْبِ واللسانِ ، والاشتغالُ بمُراقَبَته دونَ كلِّ مافيه تَفْريقٌ للقَلْبِ وَتَشْتيتٌ لَهُ.

الصِّنفُ الثالثُ: رأوْا أنَّ أنْفَعَ العبادات وأفضلَها: ماكانَ فيه نفعٌ متَعَدٍّ فَرَأَوْهُ أفضلَ مِنْ ذى النَّفْع القاصرِ ، فرَأَوْا خِدْمَةَ الفُقَراء ، والاشتغالَ بِمَصالِحِ النَّاسِ ، وقَضاءَ حَوائجهمْ ، ومُساعَدَتَهُمْ بالمالِ والجاهِ والنَّفْعِ أفضَلَ ، فَتَصَدَّوا له ، وَعَملوا عليه ، واحْتَجُّوا بِقَولِ النبىﷺ «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيالُ اللهِ وأَحَبُّهُمْ إلَيْهِ أنْفَعُهُمْ لِعِيَالِه» رواهُ أبو يَعْلى[1].

---

(١) ضعيفٌ جدًّا ورواهُ البزارُ (١٩٤٩) والبيهقىُّ فى «الشعب» عن أنس، قال الهيثمىُّ =

واحتَجُّوا بِأَنَّ عملَ العـابدِ قاصرٌ على نَفْسِهِ ، وعملَ النَّفَّاعِ مُتَعَدٍّ إلى الغَيْرِ ، وأينَ أحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ !!

قالوا: وَلِهذا كانَ فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كَفَضْلِ القَمَرِ على سائرِ الكَواكبِ.

قالوا: وقــدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعَلِيِّ بنِ أبى طالب رضى اللهُ عنْهُ «لأَنْ يَهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجُلا واحدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1] وهذا التفضيلُ إنَّمـا هوَ للنَّفْعِ المُتَعَدِّى. واحْتَجُّوا بِقَوْلِهِﷺ : «مَنْ دَعَا إلى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أجورِ مَنِ اتَّبَعَهُ ،مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَىْءٌ» [2].

واحتَجُّوا بِأَنَّ صاحبَ العبادَةِ إذا ماتَ ، انْقَطَعَ عمَلُهُ ، وَصاحِبُ النَّفْعِ لايَنْقَطِعُ عَمَلُهُ ، مادامَ نَفْعهُ الَّذى نُسِبَ إلَيْهِ.

واحْتَجُّوا بِأَنَّ الأَنْبِيـاءَ إنَّمـا بُعِثــوُا بالإحْسـانِ إلى الخَلْقِ وَهِدايَتِهِمْ ، ونَفْعِهِمْ فى معاشِهِمْ ومَعادهم ، لَمْ يُبْعَثوا بالخلوات والانقطاعِ عَنِ الناسِ والتَرَهُّبِ ، ولهذا أنكَرَ النَّبِىُّ ﷺ على أولئكَ النَّفَرِ الذين هَمُّوا بالانقِطاعِ للتَّعَبُّدِ ،وتَرْكِ مُخالَطَةِ النَّاسِ.

الصِّنْفُ الرابِعُ: قالوا إنَّ أفضَلَ العبـادَةِ: العملُ على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مُقْتَضى ذلكَ الوقتِ ووظـيفَتُهُ ، فـأفْضَلُ العبـادات فى وقت الجهادِ: الجِهادُ ، وإنْ آلَ إلى تركِ الأورادِ ، من صلاة الليلِ ، وصيامِ

= فى «المجمع» ٨/ ١٩١ : وفـيه يوسف بن عطية الصـفار وهو متـروك، ورواه الطبرانى فى «الكبير» والأوسـط» والديلمى، قال الهيثـمى: وفيه عميـر، وهو ابن هارون القرشى، وهو متروك أيضـا، وانظر «فيض القدير» ٣/ ٥٠٥ ورواه عبـد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن مـرسلا بلفظ «أحب العـباد إلى الله أنفـعهم لعيـاله» قال المناوى: إسناده ضعيف، لكن شواهده كثيرة

(١) رَواهُ البُخارى(٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦) وأحمدُ ٥/ ٣٣٣ عن سهل بن سعد.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذى (٢٦٧٤) وابن ماجة (٢٠٦) عن أبى هريرة.

النهارِ ، بلْ وَمنْ تَرْكِ إتْمامِ صلاة الفرض ، كما فى حالةِ الأمْنِ.

والأفْضَلُ فى وقت حضورِ الضيفِ مثلا : القيامُ بحَقِّه ، والاشتغالُ بِهِ عَنِ الْوِرْدِ الْمُسْتَحَبِّ ، وكذلكَ فى أداءِ حقِّ الزَّوْجَةِ والأهْلِ.

والأفضلُ فى أوقاتِ السَّحَرِ : الاشتغالُ بالصَّلاةِ والقُرآنِ ، والدُّعاءِ والذِّكْرِ والاسْتِغْفارِ.

والأفضلُ فى وقت استرشادِ الطالبِ ، وتعليمِ الجاهلِ : الإقبالُ على تعليمِهِ ، والاشتغالُ بهِ.

والأفضلُ فى أوقاتِ الأذان : تركُ ماهوَ فيه من وِرْدِهِ ، والاشتغالُ بإجابَةِ المُؤَذِّن.

والأفضلُ فى أوقاتِ الصلواتِ الخمسِ : الجدُّ والنُّصحُ فى إيقاعها على أكمَلِ الوجوهِ ، والمبادرَةُ إليها فى أولِ الوقتِ ، والخروجُ إلى الجامعِ ، وإن بَعُدَ كانَ أفضَلَ.

والأفضَلُ فى أوقات ضرورةِ المحتاجِ إلى المساعدةِ بالجاهِ ، أو البَدَنِ ، أو المالِ : الاشتغالُ بمساعدته ، وإغاثَةُ لَهْفَتِه ، وإيثار ذلك على أورادكَ وخلوتكَ.

والأفضلُ فى وقتِ قراءةِ القرآن : جمع القلب والهمة على تدبُّرِهِ وتفهُّمِهِ حتى كأَنَّ الله تعالى يخاطبكَ به ، فتجمع قلبكَ على فهمِهِ وتدبُّرِه ، والعَزْمِ على تنفيذِ أوامرِهِ ، أعْظَمَ من جَمْعِيَّة قلب من جاءَهُ كتابٌ من السُّلطانِ على ذلكَ.

والأفضلُ فى وقتِ الوقوفِ بعَرَفَةَ : الاجتهادُ فى التَّضَرُّعِ والدُّعاءِ والذِّكْرِ دون الصَّوْمِ المُضْعِفِ عن ذلكَ.

والأفضلُ فى أيَّامِ عَشْرِ ذى الحجَّة : الإكثارُ منَ التَّعَبُّدِ ، لاسيما التكبير والتهليلُ والتحميدُ ، فهو أفضلُ منَ الجِهادِ غيرِ المُتعيِّنِ.

والأفضَلُ فى العَشْرِ الأخيـرِ من رَمضان: لُزُومُ المسجـدِ فيهِ ، والخلوة والاعتكاف ، دون التصدِّى لمخالطة الـناس ، والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضلُ من الإقبالِ على تَعْلِيمِهِم العلمَ ، وإقرائِهِمُ القُرآنَ ، عند كثير من العلماء.

والأفـضلُ فى وَقْتِ مـرض أخـيك المسْلِمِ أو مَوتِهِ: عِيـادَتُهُ وحُضُـور جنازته وتشييعه.

والأفضلُ فى وقت نزولِ النوازِلِ ، وأذاة الناسِ لكَ: أداءُ واجِبِ الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهـرب منهم ، فإنَّ المُؤْمِنَ الذى يُخـالِط الناسَ ليصبرَ على أذاهُمْ ، أفضلُ مِنَ الَّذى لايُخالِطُهُمْ ولا يُؤْذونَهُ.

والأفضلُ خُلطتهُمْ فى الخيرِ ، فهى خيرٌ من اعتزالِهِمْ فيه ، واعتزالُهُمْ فى الشَّرِّ ، فهو أفضلُ من خُلْطَتِهِمْ فيهِ. فإن عَلِمَ أنَّهُ إذا خالَطَهُمْ أزالَهُ أو قلَّلَهُ ، فخُلْطَتُهُمْ حينئذ أفضلُ من اعتزالِهِمْ.

فـالأفـضلُ فى كل وقتٍ وحـالٍ: إيـثـارُ مَرضـاة الله فى ذلكَ الوقتِ والحالِ ، والاشتغال بواجبِ ذلكَ الوقتِ ووظيفَته ومُقتضاهُ.

وهَؤُلاءِ هم أهلُ التّعَبُّدِ المُطلَقِ ، والأصناف قبلَهم أهلُ التعبد المقَـيَّد ، فمتى خرجَ أحَدُهُم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارَقَهُ ، يرى نفسَهُ كأنَّهُ قد نقَصَ وتَرَكَ عِبادَتَهُ ، فهـوَ يَعْبُدُ اللهَ على وجه واحدٍ ، وصاحبُ التـعـبُّدِ المُطلَقِ ، ليسَ له غـرضٌ فى تعبُّدٍ بِعَيَنِهِ يُؤْثِرُهُ على غَـيـرِهِ ، بل لايزال مُتَنَقِّلًا فى منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة ، عمل على سيرهِ إليها ، واشتغلَ بها حتى تلوحَ لهُ منزلَةٌ أخرى ، فهذا دَأْبُهُ فى السيرحتى ينتـهى سـيرهُ ، فـإن رأيتَ العُلَمـاءَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رأيتَ العُبَّادَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رأيتَ المُجـاهدينَ رَأَيْتَهُ مَعَهُمْ ، وإن رأيـتَ الذَّاكـرينَ رَأَيْتَهُ معهُمْ ، وإن رأيتَ المُتصَدِّقينَ المُحْسِنينَ رأيتَهُ مَعَهُمْ.

فهذا هو العبدُ المُطْلَقُ ، الذى لم تملكهُ الرسوم ، ولم تقيدهُ القيود ، ولم يكن عملُهُ على مُراد نفسهِ ، وما فيه لذَّتُهَا وراحَتُها من العباداتِ ، بل هو على مُراد ربِّه ، ولو كانت راحةُ نفسه ولذَّتُها فى سِواهُ ، فهذا هو المُتحقِّق بـ ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ۞وإيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾ حَقًّا ، القائمُ بهما صدقاً مَلْبَسُهُ ماتَهيَّأَ ، ومأكَلُهُ ماتَيَسَّرَ ، واشتغالُه بما أمر اللهُ به فى كل وقت بوقته ، ومجلسُهُ حيثُ انتهى به المكانُ ووجَدَهُ خالياً ، لاتَمْلكُهُ إشارة ، ولا يتعبَّدُهُ قيد ، ولا يستولى عليه رسْمٌ ، حُرٌّ مُجَرَّدٌ ، دائرٌ مع الأمرِ حيثُ دارَ ، يَدينُ بدينِ الآمرِ أنَّى توجَّهَتْ ركائبُهُ ، ويدورُ معهُ حيثُ استَقَلَّتْ مَضاربُهُ ، يأْنَسُ به كلُّ مُحقٍّ ، ويَسْتَوْحِشُ منهُ كُلُّ مُبْطِلٍ ، كالغَيْثِ حيثُ وَقَعَ نَفَعَ ، وكالنَّخْلَةِ لايَسْقُطُ ورَقُها ، وكُلُّها مَنْفَعَةٌ حتى شوكها ، وهو موضعُ الغِلْظَة منه على المخالفين لأمرِ اللهِ ، والغضبُ إذا انتُهِكتْ مَحارِمُ اللهِ ، فهو للهِ وباللهِ ومعَ اللهِ ، قد صحب اللهَ بلا خَلْق وصحبَ الناسَ بِلا نَفْس ، بل إذا كان مع اللهِ ، عزَلَ الخلائقَ عن البينِ وتخَلَّى عنْهُمْ ، وإذا كان مع خلقه ، عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فَواهًا لهُ! ماأغْرَبَهُ بينَ الناسِ! وما أشدَّ وَحْشَتَهُ منهُمْ! وما أعظَمَ أُنْسَهُ باللهِ وفَرَحَهُ بهِ ، وطُمَأنينَتَهُ وسُكونَهُ إليهِ!! واللهُ المُسْتَعانُ ، وعليهِ التُّكْلان.

حِرْمانُ الجَبْرِىِّ منْ حَلاوَة العبادَة

ثُمَّ للناسِ فى منفعةِ العبادةِ وحِكْمَتِها ومَقْصودِها طرُقٌ أرْبَعَةٌ ، وهُمْ فى ذلكَ أربَعَةُ أصْناف:

الصنفُ الأوَّلُ: الجَبْرِيَّة الذين يردُّون الأمرَ إلى محضِ المشيئةِ ، وصِرْفِ الإرادةِ، فَهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلَّا لمجرد الأمر ، من غير

أن تكون سببا لسعادة فى معاشٍ ولا معادٍ ، ولا سَبَبًا لنجاةٍ ، وإنما القيامُ بها لمجرَّدِ الأمر ومحضِ المشيئة.

وهؤُلاء لايجدونَ حلاوةَ العِبادةِ ولا لذَّتَها ، ولا يتنعَّمون بها ، وليست الصلاةُ قُرَّةَ أعينِهِمْ. وليست الأوامرُ سرور قلوبهِمْ ، وغذاءَ أرواحِهِمْ وحياتِهِمْ ، ولِهذا يُسَمُّونَها «تكاليف» أى: قد كُلِّفوا بها ، ولو سَمَّى مُدَّعٍ لمحبة ملكٍ من الملوكِ أو غيرِهِ مايأمُرُهُ به تكليفا ، وقال: إنى إنما أفعله بكلفة: لم يعدَّهُ أحدٌ محبًّا لهُ ، ولهذا أنكر هؤلاءِ - أو كثيرٌ منهم - محبَّةَ العبدِ لربِّهِ ، وقالوا: إنما يحب ثوابَهُ ، وما يخلقهُ لهُ من النعيمِ الذى يتمتَّعُ بهِ ، لا أنَّهُ يحبُّ ذاتَهُ ، فجعلوا المحبَّةَ لمخلوقهِ دونَه. وحقيقة العبوديَّة هى: كمالُ المحبَّةِ ، فأنكروا حقيقةَ العبودية ولُبَّها ، وحقيقةُ الإلهيَّةِ: كونُه مألوها ، محبوبًا بغاية الحب ، المقرون بغاية الذُّلِّ والخُضوعِ ، والإجلالِ والتعظيمِ ، فأَنْكَروا كونَهُ محبوبًا ، وذلك إنكارٌ لإلهيَّتِه ، وشيخُ هؤُلاءِ هو «الجَعْدُ بنُ دِرْهَم» الذى ضحَّى به خالدُ بنُ عبدالله القَسْرِىّ فى يوم أضحى ، وقال: إنَّهُ زَعَمَ أنَّ اللهَ لَمْ يُكَلِّمْ موسى تكليماً ولم يَتَّخِذْ إبراهيمَ خليلاً ، وإنَّما كانَ إنْكارُه ،لِكَوْنِهِ تعالى محبوبا مُحِبًّا لم ينكر حاجةَ إبراهيمَ إليه ، التى هى الخلَّةُ عند الجهميةِ ، التى يشترك فيها جميعُ الخلائقِ ، فكلهم أخلَّاءُ لله عِنْدَهُمْ .

وبَعْضٌ يَمُنُّونَ إسْلامَهُمْ

الصنف الثانى: القدريةُ النُّفاة ، الذين يقولون إن العباداتِ شُرعت أثمانًا لما ينالُه العبادُ من الثواب والنعيمِ ، وأنها بمنزلة استيفاء أجرَة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلُها اللهُ تَعالى عِوَضاً كقولِهِ ﴿**وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:٤٣] وقولهُ ﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا**

كُنتُمْ تَعْمَلونَ﴾ [النحل: ٣٢] وقوله ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] وقَوْله ﷺ فيما يحكى عَنْ ربِّه عَزَّ وَجَلَّ «يَاعبادى إنَّمَا هى أَعْمالُكُمْ أُحْصيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا»[1] وقولهُ تعالى ﴿إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠] قالوا: وقد سمَّاهُ اللهُ سبحانَهُ جزاءً وأجراً وثوابًا، لأنه يثوبُ إلى العاملِ منْ عَمَلِه، أى: يرجعُ إليه منهُ.

وإنما كان الجزاءُ ثوابًا والله أعلمُ لأنه يثوبُ إلى العاملِ، وترجعُ إليه ثمرةُ عمله فى الدنيا لينقدها ويُحاسبَ نفسَهُ عليها، ويعْرفَ مافى عمله من نقصٍ وانحرافٍ عن الجادَّةِ ولا بدَّ بقدرِ ماوجدَ فى ثمرتِهِ التى ثابت ورَجَعَتْ إليهِ فى الدنيا، ككلِّ الشؤون والأعمالِ الدُّنْيَوِيَّة، من صناعة وزراعةٍ وتجارَةٍ وغيرها، فيتداركُ العبدُ النقصَ، ويَتَحَرَّى الصِّراطَ المُسْتَقيمَ فإذا لَم ينقدْ عمله، ولم يُحاسبْ نَفْسَهُ، لمَا يغلبُ عليهِ من الغفلةِ والجَهالَةِ والتقليدِ الأعمى، كان ذلك قاطعاً لِعُذْرِهِ يومَ القيامَةِ.

قالوا: ولولا ارتباطُهُ بالعمل، لم يكن لتسميته جزاء ولا أجرًا ولا ثَوابًا معنى.

قالوا: ويدُلُّ عليهِ الوزنُ، فلولا تعلُّقُ الثوابِ والعقابِ بالأعمال واقتضاؤها لها، وكونها كالأثمان لها، لم يكن للوزن معنى، وقد قال تعالى ﴿والوَزْنُ يَومَئذ الحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فأُولئَكَ هُمُ المُفْلحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئَكَ الَّذينَ خَسرُوا أنفُسَهُم بِما كَانُوا بِآياتنَا يَظْلمُونَ﴾ [الأعراف: ٨:٩]

وهَاتان الطائفَتان مُتقابلتانِ أشَدَّ التَّقابُلِ، وبينَهُما أعظمُ التَّبايُنِ.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء ألبتة، وجَوَّزَتْ أن يُعَذِّبَ اللهُ مَن أفنى عمرَهُ فى طاعَتِه، ويُنَعِّمَ مَنْ أفنى عمْرَهُ فى مَعْصِيَتِهِ، وَكلاهُمَا

(١) أخرجَهُ مسلم (٢٥٧٧)، وهو فى «المسند» ٥/ ١٥٤و١٧٧ عن أبى ذَرٍّ.

بالنسبة إليه سواء ، وجوّزت أنْ يَرْفعَ صَاحِبَ العَمَلِ القليلِ على منْ هُوَ أعْظَمُ منْهُ عمَلاً ، وأكْثَرُ وأفْضَلُ دَرَجاتٍ ، والْكُلُّ عِنْدَهُمْ راجِعٌ إلـى مَحْضِ الْمَشيئَةِ ، من غير تعليلٍ ولا سببٍ ، ولا حكمةٍ تقتضى تَخْصِيصَ هذا بالثّواب ، وهذا بالعقاب.

والقَدَرِيَّةُ أوجَبَتْ على اللهِ سُبحانَه رِعايَةَ الأصلَحِ ، وجعلت ذلكَ كُلَّه بمحضِ الأعمال وثمنا لها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيصٌ باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتَلَهُمُ اللهُ ، ماأجْهَلَهُمْ باللهِ ، وأغَرَّهُمْ بهِ! جعَلوا تفضُّلَهُ وإحْسانَهُ إلى عبده بمنزلةِ صدقة العبدِ على العبد ، حتى قالوا: إن إعطاءَهُ مايُعطيه أجرة على عمله أحبُّ إلى العبدِ وأطيبُ لهُ من أن يُعطيه فَضلًا منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشدَّ المُقابلَة ، ولم يجعلوا للأعمالِ تأثيراً فى الجزاء ألبَتَّةَ.

والطائفَتانِ جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذى فطَرَ اللهُ عليه عِبادَهُ ، وجـاءت به الرسلُ ، ونزلت به الكتب ، وهو أن الأعمالَ أسبـابٌ موصلةٌ إلى الثوابِ والـعقابِ ، مقـتضيـةٌ لهما كـاقتضـاءِ سائرِ الأسبابِ لمُسَبَّباتِها ، وأنَّ الأعمـالَ الصالحةَ من توفيقِ اللهِ وفضله ومَنِّه ، وصدقته على عبدِه أن أعانَهُ عليـها ووفَّقَهُ لها ، وخلقَ فيه إرادتَها والقُدْرَةَ عليـها ، وحَبَّبَهـا إلَيه ، وزَيَّنَهـا فى قلبـهِ وكَرَّهَ إليهِ أضـدادَها. ومع هذا فليـست ثَمَنًا لجَزائه وثوابِه ، ولا هىَ على قـدرِه ، بلْ غايتُهـا إذا بَذَلَ العبدُ فيها نُصْحَهُ وَجُهْدَهُ ، وأوقعها على أكمَلِ الوجوه أن تقع شُكرًا له على بعضِ نِعَمِه عليـهِ ، فلو طالبَهُ بِحَقِّه ، لبقىَ عليـه من الشكر على تلك النعمـة بقية لم يقم بشكرها. فلذلك لو عَذَّبَ أهلَ سـماواته وأهلَ أرْضِهِ لعذَّبَهُمْ وهوَ غير ظالمٍ لَهُمْ ، ولو رَحِمَهُمْ ، لكانت رحمتُهُ خيرًا

لهُمْ من أعمالِهِمْ ، كما ثبت ذلك عن النبىِّ ﷺ ، ولهذا نفى النبىُّ ﷺ دخولَ الجنةِ بالعملِ ، كما قال «لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً مِنْكُمُ الجَنَّةَ عَمَلُهُ» وفى لفظ: لنْ يَدْخلَ أحَدٌ منْكُم الجنَّة بعَمَلِه. وفى لفظ: لن يُنْجىَ أحَدًا منْكُمْ عَمَلُه قالوا: ولا أنتَ يارسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا ، إلَّا أن يَتَغَمَّدنى اللهُ برحمة منهُ وفضلٍ»[1] وأثبت سبحانه دخولَ الجنةِ بالعملِ ، كما فى قولِهِ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]

ولا تنافى بينَهُما ، إذ تواردُ النفى والإثباتِ ليس على معنىً واحِدٍ ، فالمَنْفِىُّ استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمنا وعوضا لها ،ردًّا على القَدَرِيَّةِ المجوسيةِ ، التى زعمتْ أنَّ التَّفَضُّلَ بالثواب ابتداء متضمنٌ لتكريرِ المِنَّة.

وهذه الطائفةُ من أجهلِ الخَلْقِ باللهِ ، وأغلَظِهمْ عنه حجابًا ، وحُقَّ لهُمْ أن يكونوا مجوسَ هذهِ الأمَّة ، ويكفى فى جهلِهِمْ باللهِ: أنهم لم يعلموا أن أهلَ سماواته وأرضه فى منَّته ، وأن من تمام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة ، اغتباطُهُمْ بِمِنَّةِ سَيِّدِهِمْ وَمَوْلاهُمْ الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشُهُم بهذه المِنَّة ، وأعظمُهُمْ منه منزلَةً ، وأقربُهُمْ إليه: أعرَفُهُمْ بهذه المِنَّة ، وأعظمُهُم إقراراً بها ،وذكْراً لها ، وشُكراً عليها ، ومحبة له لأجلها ، فهل يتقلَّب أحَدٌ قَطُّ إلَّا فى منَّته؟ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]

واحتمالُ مِنَّةِ المَخْلوقِ : إنَّما كانتْ نَقْصًا ، لأنَّهُ نظيرُهُ ، فإذا مَنَّ عليهِ

---

(١) رواه البخارى (٦٤٦٣)، (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦) وأحمد ٢/ ٢٣٥، ٢٥٦، ٢٦٤، ٣٢٦، ٣٤٤، وابن ماجة (٤٢٠١) عن أبى هريرة، وفى الباب عن غيره من الصحابة.

استَعْلَى عليه ، ورأى المَمْنون عليـه نفسَه دونه ، هذا مع أنه ليس فى كلٍّ مخلوق ، فَلرَسولِ الله ﷺ المِنَّةُ على أُمَّتِهِ ، وكـان أصحابُهُ يقولون «الله ورســوله أمَنُّ» ولا نقص فى منة الـوالد على ولده ، ولا عـار عليـه فى احتـمالها ، فكيف برب العـالمين الذى إنما يتقلَّبُ الخـلائقُ فى بحرِ مِنَّتِهِ عليـهم ، ومحْضِ صـدقته عليـهم ، بلا عِوَضٍ منهم ألبَتَّةَ؟ وإن كـانت أعمالُهُم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده. فهو المَنَّانُ عليهم ، بأن وفقهم لتلك الأسبابِ وهداهم لها ، وأعانَهُم عليها وكَمَّلَها لهم ، وقَبِلها منهم على مافيها؟ وهذا هو المعنى الذى أثبت به دخـول الجنة فى قوله (بما كنتم تعملون).

فهذه باءُ السَّبَبِيَّةِ ، ردًّا على القـدرية والجبرية ، الذين يقـولون: لا ارتباط بين الأعمالِ والجزاء ولا هى أسبابٌ لهُ.

فالنصوص مُبطلةٌ لقول هؤلاء كما هى مبطلة لقول أولئكَ ، وأدلَّةُ المعقول والفطرة أيضا تبطل قولَ الفريقـين ، وتبين لمن له قلب ولُبٌّ مقدار قول أهل السنة ، وهم الفِرْقَةُ الوَسَطُ المثبـتون لعموم مشيـئة الله ، وقدرته ، وخَلْقِهِ العبادَ وأعمالَهُمْ ، ولحكمته التامةِ المتضمنةِ رَبْطَ الأسبابِ بِمُسَبَّباتِها وانعقادها بها شرعا وقدرا وترتيبها عليها عاجلا وآجلًا.

وكلٌّ واحدةٍ من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعا من الحق ، وارتكبت لأجلِهِ نوعا من الباطلِ ، بل أنواعًا ، وهدى اللهُ أهلَ السُّنَّةِ لما اختلفوا فيه من الحق بإذْنه ﴿والله يَهْدِى مَن يَشاءُ إلَى صِراط مُّسْتَقيم﴾ [البقرة: ٢١٣]
و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يؤْتيهِ مَن يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظيم﴾ [الجمعة: ٤]

تَفَلْسُفٌ

الصنفُ الثالثُ: الذين زعمـوا أن فائدةَ العبادةِ: رياضـةُ النُّفوسِ ، واستعدادُها لفيضِ العلومِ عليها ، وخروجُ قُواها عن قُوى النفوسِ البَهيميةِ فلو عُطِّلَتْ عن العـباداتِ لـكانت من جنس نفـوس السِّباع والبَهـائمِ ، والعباداتُ تخرجُها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقولِ المُجَرَّدَة ، فتصيرُ عالمةً قابِلَةً لانتقاشِ صُوَرِ العلومِ والمَعارِفِ فيها.

المحَبَّةُ أَساسُ العبادة

وأما الصنفُ الرابعُ: فهم الطائفة المحمـدية الإبراهيميةُ ، أتباعُ الخليلين العارفونَ باللهِ وحكمته فى أمرِهِ وشَرعِهِ وخَلْقِهِ ، وأهلُ البَصائرِ فى عبادَتِهِ ومرادِه بها.

فالطوائف الثلاثُ محجوبون عنهم بما عندهم من الشُّبَهِ الباطلةِ ، والقواعدِ الفاسدَةِ ، ماعندهم وراء ذلك شيءٌ ، قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيـالِ ، ولو علموا أن وراءهُ ماهو أجلُّ منه وأعظمُ لما ارتضَوا دونَهُ ، ولكن عـقـولهم قَصُرَتْ عنه ، ولـم يهـتدوا إليـه بنور النبوة ، ولـم يشعروا به ، ليجتهدوا فى طلبه ، ورأوا أن مامعهم خير من الجهل ، ورأوا تناقُضَ مامع غيرِهم وفسادِه.

فـتركّب من هذه الأمـور إيثـارُ ماعـندهم على ماسـواه ، وهذه بليـة الطوائف ، والمعافى مَنْ عافاهُ اللهُ.

فاعلمْ أن سرَّ العُبودية ، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها مَنْ عَرفَ صِفاتِ الربِّ عزَّ وجَلَّ ، ولم يُعَطِّلْها ، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونهِ إلهًا ، بل هوَ الإلهُ الحقُّ ، وكلُّ إلهٍ سواهُ فباطِلٌ ، بل أبطل الباطل وأن حقـيقة الإلهـيةِ لاتنبـغى إلا لهُ ، وأن العبادةَ مـوجب إلهيـتهِ وأثرها

ومُقتضاها ، وارتباطها بهـا كارتباط المعلومِ بالعِلْمِ ، والمقدورِ بالمقدرَةِ ، والأصواتِ بالسمعِ ، والإحسانِ بالرحمةِ ، والعطاءِ بالجود.

فمن أنكر حقيقـة الإلهية ، ولم يعرفها كيف يستقـيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شُرِعَتْ لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلقِ ، والتى لها خُلِقوا ، ولها أرسلت الرسلُ وأنزلت الكتبُ ، ولأجلِها خُلقت الجنّةُ والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة للهِ إلى مالا يليقُ بهِ ، ويتعالى عنهُ مَنْ خلق السموات والأرضَ بالحقِّ ، ولم يخلقها باطِلاً ، ولم يخلق الإنسانَ عبثًا ، ولم يتركه سدى مُهْمَلاً ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

أى لغيـر شئٍ ولا حكمة ولا لعـبادتى ومجـازاتى لكم ، وقد صَرَّحَ تعالى بهذا فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعْبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦]

فالعبادة هى: الغاية التى خـلق لها الجن والإنس والخلائقُ كُلُّها. قال اللهُ تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]

أى: مُهْمَلاً ، قال الشـافعىُّ: لايُؤْمَر ولا يُنهى ، وقال غيـره: لايثاب ولا يعاقب ، والصحـيح: الأمرانِ ، فإنَّ الثَّوابَ والعِقابَ مـترتبان على الأمرِ والنهيِ ، والأمـرُ والنهيُ طلبُ العبادة وإرادتها ، وحـقيقة الـعبادة امتثالها ، وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمـوَاتِ والأرْضِ ربَّنا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ والأرْضَ وَمَا بيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]

وقال: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]

فَأخبرَ أنه خلق السموات والأرضَ بالحق المتضمن أمره ونهيهُ ، وثوابه وعقابَهُ. فليتأمَّلِ اللبيبُ الفُرقانَ بينَ هذهِ الأقوالِ ، وبينَ مادل عليه صريح الوحى يجد أن أصحاب هذه الأقوال ماقدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته.

فاللهُ تعالى إنماخلق الخلق لعبادته ، الجامعة لكمال محبته ، مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصلُ العبادة: محبة اللهِ ، بل إفرادُهُ بالمحبةِ ، وأن يكون الحب كله لله ، فلا يحب معه سواه ، وإنما يحبُّ لأجلِهِ وفيه ، كما يحب أنبياءَهُ ورسله ، وملائكتهُ وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة مَنْ يَتَّخذُ من دون الله أنداداً يُحبونهم كحُبِّه.

وإذا كانت المحبة له هى حقيقةَ عبوديَّتهِ وسرَّها ، فهى إنما تتحققُ باتِّباعِ أمرهِ ، واجتناب نهيه ، فعند اتباع الأمر ، واجتناب النهى تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسولهِ عَلَمًا عليها ، وَشاهدًا لمن ادَّعاها ، فقال تعالى: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فجعلَ اتِّباعَ رسولهِ مَشروطًا بمحبَّتِهِمْ لله ، وَشَرْطا لمحَبَّة الله لهُمْ. ووجُودُ المشْروطِ ممتنعٌ بدونِ وُجُودِ شَرْطِهِ وتحققُّه بتَحَقُّقه فَعُلِمَ انتفاءُ المحبةِ عند انتفاء المتابعة. فانتفاءُ محبتهم لله لازمٌ لانتفاء المتابعَة لرسولِه ، وانتفاءُ المتابعةِ ملزومٌ لانتفاء محبَّة الله لَهُمْ ، فيستحيلُ إذًا ثُبوت محبتهم للهِ وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسولِه.

ودلَّ على أنَّ متابعةَ الرسُولﷺ هى: حُبُّ الله ورسوله ، وطاعةُ أمرِه. ولا يكفى ذلك فى العبودية ، حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إلى

العبدِ مما سواهما. فلا يكون عنده شئٌ أحَبَّ إليهِ من اللهِ ورسولِهِ. ومتى كان عنده شئٌ أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذى لايغفره اللهُ لصاحبه ألبتَّةَ، ولا يهديه اللهُ، قال تعالى: ﴿قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وَعَشيرتُكُمْ وأَمْوالٌ اقْتَرفْتُمُوها وَتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُوله وَجِهَاد فِى سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُواحَتَّى يأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقينَ﴾

[التوبة: ٢٤]

فكل من قدَّم طاعةَ أحَدٍ من هؤلاء على طاعة اللهِ ورسولِهِ، أو قولَ أحدٍ منهم على قول اللهِ ورسولِهِ، أو مرضاةَ أحدٍ منهم على مرضاةِ اللهِ ورسولِهِ، أو خوفَ أحدٍ منهم ورجاءَهُ والتوكُّلَ عليه على خوفِ اللهِ ورجائه والتوكُّلِ عليه، أو معاملةَ أحدِهمْ على معاملةِ اللهِ، فهو ممن ليس اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه، فهو كذبٌ منه وإخبارٌ بخلاف ماهو عليه، وكذلك من قدم حكمَ أحَدٍ على حكمِ اللهِ ورسولِهِ.

الأرْكانُ الأرْبَعَةُ للعبادَة التّامَّة

وبنى «إياكَ نَعْبُدُ» على أربعِ قواعد: التحققُ بما يحبه اللهُ ورسولُهُ ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعملِ القلبِ والجوارحِ.

فالعبودية: اسمٌ جامعٌ لهذهِ المراتبِ الأرْبَعِ، فأصحابُ «إياكَ نعبُدُ» حقا هم أصحابُها.

فقولُ القلبِ: هوَ اعتقادُ ماأخْبرَ اللهُ سُبحانَهُ به عنْ نفسِهِ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكَته ولقائه على لسان رُسُلِه.

وقولُ اللِّسَانِ: الإخبارُ عنهُ بذلك، والدعوةُ إليهِ، والذَّبُّ عنْهُ،

وتبيينُ بُطلانِ البدَعِ المُخالِفة لهُ والقيامُ بذكرِه وتَبْليغ أوامِرِه.

وعملُ القلبِ: كالمحبةِ لهُ، والتوكُّلِ عليه، والإنابةِ إليهِ، والخوفِ منهُ، والرجاءِ لهُ، وإخلاصِ الدِّينِ له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمُعاداة فيه، والذُّلِّ له والخضوعِ، والإخباتِ إليهِ، والطُّمأنينَة به، وغير ذلك من أعمال القلوبِ، وعملُ الجوارِحِ بدونها إمَّا عَديمُ المَنْفَعَةِ أو قليلُ المنفعة.

وأعمالُ الجوارِحِ: كالصلاةِ والجِهادِ ونقلِ الأقدامِ إلى الجمعةِ والجماعاتِ، ومساعدة العاجِزِ، والإحسانِ إلى الخلقِ ونحوِ ذلكَ.

ف«إياكَ نعبدُ» التزامٌ لأحكامِ هذه الأربعةِ، وإقرارٌ بها، و «إياكَ نستعينُ» طلبٌ للإعانةِ عليها والتوفيق لها، و «اهدنا الصراط المستقيم» متضمنٌ للتعريفِ بالأمرينِ على التفصيلِ، وإلهامِ القيامِ بهما، وسلوكِ طريقِ السالكينَ إلى اللهِ بها.

❊ ❊ ❊

انتهى فصل «عبادة واستعانة»

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل الإخلاص له سبحانه والمتابعة لرسوله ﷺ، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفَعنا بما عَلَّمَنا، وأن يزيدنا عِلْما بفضله وإحسانه، وأن يجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهه الكريم، وأن يسترنا فى الدنيا والآخرة، ويجعلنا من أهل رحمته وعفوه إنه قريب مجيب الدعوات وصلَّى الله على نبيه الكريم وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

فهرس تجريد التوحيد المفيد

الصفحة



فهرس عبادة واستعانة

الصفحة

والحمد لله أولا وآخراً